الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة العربي بن مهيدي–أم البواقي–

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

جدلية الأنا والآخر في رواية كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد للروائي واسيني الأعرج مقاربة في التلقي والتأويل

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في ميدان اللغة والأدب العربي : أدب عربي حديث

إعداد الطالبة :

سارة شاوش

إشراف الأستاذ/ الدكتور:

باديس فوغالي

2014 -2015م

1435 – 1436ه

مقدمة :

تعد إشكالية الأنا والآخر أهم المسائل، والقضايا التي تناولتها الرواية العربية عامة، والجزائرية خاصة، فكانت هذه الثنائية واضحة، وبارزة في أعمال الكثير من الروائيين، فهناك من بين لنا بشاعة وهمجية ودناءة وغدر الآخر /الغربي ،لأن الأنا العربية عانت القهر، والقمع والاضطهاد، الذي مورس عليها من طرفه، فجسدت لنا هذه الروايات الصراع والصدام القائم بين الغرب والشرق منذ الأزل، فنظرت إليه بنظرة سلبية وانغلقت على ذاتها، ورفضت كل ما هو أجنبي بحكم أنه عدو لدود، وسببا في تخلفها وانحطاطها، وتشتتها، وتمزقها.

كما ذهب روائيون ذهبوا عكس هذا الاتجاه في متونهم الروائية، حيث جسدوا، وصوروا الآخر الغربي على انه ملاك روحاني معصوم من الخطأ، فانفتحوا على كل ما جاء ونادى به رغبة منهم في الاستفادة من خبرته، وعلومه، وحضارته، لبناء دولة قوية تواكب العصر المتقدم، حتى وإن كان على حساب بعض المبادئ، والأسس، والثوابت، فهي روايات الاندهاش والانبهار، والإعجاب بالآخر الغربي وبما صل إليه، وبما حققه من تقدم ورقي وازدهار، فنظرت إليه بنظرة ايجابية، وإلى نفسها بنظرة سلبية؛ أي "احتقار و تدني"، فمجدت حضارته وثقافته.

ومن الروايات التي تعرضت، أو صورت هذا رواية "كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد "

للروائي واسيني الأعرج، فالروائي صور لنا انفتاح وانبهار الأنا الجزائرية /على الآخر الفرنسي، هي رواية التسامح والتعايش والحوار الحضاري بين الأنا والآخر، فواسيني تجاوز هذه الثنائية، فبدل معاداته لابد من الاستفادة من خبرته، وعلومه، وحضارته كما فعل المسلمون القدماء لما انفتحوا على الحضارات المجاورة فرس، وروم، ويونان .....

وهو الأمر الذي جعل هذه الدراسة موسومة بالأنا والآخر في رواية "كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد" لواسيني الأعرج مقاربة في التلقي والتأويل .

وقد وقع اختياري على هذا الموضوع، وهذه الدراسة لأسباب ألخصها فيما يأتي:

1-إن الأنا العربية لاتزال إلى يومنا هذا تعاني الاضطهاد، والقمع، والقهر،من طرف الآخر الغربي، وهذا ما تعيشه فلسطين.

2-اخترت هذه الرواية لأنها رواية الهوية، والانتماء الجزائري، توضح وتبين لكل جزائري كيفية بناء الدولة الجزائرية الحديثة من طرف الأنا /الأمير عبد القادر .

3-لأن هذه الرواية تسرد جزء من حياة شخصية تاريخية، دينية عظيمة "الأمير عبد القار" وتجيب عن المسكوت "علاقة الأمير مع الآخر الفرنسي /الأسقف الأول في الجزائر مونسينيور ديبوش، أي أنها تجيب عن أسئلة كثيرة عالقة في ذهن كل جزائري .

4-ربما الرواية فرضت نفسها علي، لأنها تجسد الحوار الحضاري تارة والصراع والصدام تارة أخرى بين الأنا والآخر.

5-رغبة الغوص في بحر ليس له حدود " الأدب الجزائري" لمعرفته أكثر، لأن الطالب الجزائري غالبا ما يدير ظهره إلى أدبه، ويسعى جاهدا وراء الأدب المشرقي، لأنه معجب ومنبهر بأدبائه وكتابه أكثر من انبهاره بأدباء أرضه وبلده.

6- الأدب الجزائري أدب رفيع، ينبغي الاهتمام به والانتباه إليه، لاكتشاف الكنوز الثمينة المضمرة والمختبأة فيه، إذا لم نحي أدبنا الجزائري بدراسات من هذا النوع من سيهتم به ويحييه؟.

-إذ حاولت الإجابة عن بعض الإشكالات التي كانت محل جدال بين الدارسين وهي:

1-هل لجأت الرواية العربية إلى بناء جسور للتفاهم بين الأنا والآخر ؟.

2-ما مدى حضور لغة الانسجام، أو العنف في تجسيد إشكالية الأنا والآخر ؟.

3-هل قدم الروائي العربي كواسيني الأعرج مثلا رؤى متعددة لهذه الإشكالية ؟.

4-هل انطلق واسيني من نظرة إقصائية تنزه الأنا، وتحتقر كل من يختلف عنها، أم العكس ؟.

وللإجابة عن هذه الطروحات وغيرها، اتبعت منهج التلقي والتأويل لأتمكن من قراءة المتن الروائي من وجهة نظري، لأن هذا النص متعدد الدلالة ويحمل أكثر من قراءة.

وقد جاء بحثي هذا بعنوان "الأنا والآخر في رواية كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد لواسيني الأعرج مقاربة في التلقي والتأويل".

مرفقة له بخطة محكمة تمثلت فيما يأتي :

مدخل وثلاث فصول، أما المدخل: فتناولت فيه الحديث عن الرواية العربية وإشكالية الأنا والآخر، يليه الفصل الأول الذي كان نظريا بحتا :أدرج تحت عنوان مواقف الأنا تجاه الآخر وقد تعرضت فيه إلى ماهية الأنا والآخر، موقف الانبهار، والإعجاب، والرؤية العدوانية، والحضارية، والسياسية والحقوقية، ماهية الهوية، الأنا بين الانفتاح والانغلاق، ماهية المثقف، والثقافة، صورة المثقف العربي ....الخ

أما الفصل الثاني والثالث: فيمثلان الجانب التطبيقي في دراسة إشكالية الأنا والآخر، فقد تناولت في الفصل الثاني :مواقف الأنا تجاه الآخر"الرؤية الحضارية ،الرؤية العدوانية" وأدرج تحت عنوان الأنا والآخر ورحلة السرد، أما الفصل الثالث: فعنون بالفني والإيديولوجي، وقد تناولت فيه الأنا/الأمير بين الانفتاح والانغلاق، والأمير /صورة المثقف العربي .

لأصل إلى خاتمة تبرز أهم ما توصلت إليه، في بحثي من نتائج.

وقد اعتمدت على مجموعة من الكتب التي عالجت الموضوع أهمها:

صورة الغرب في الأدب العربي المعاصر "لجان نعوم طنوس"، نحن والآخر "لمحمد راتب الحلاق"، صورة الآخر في الشعر العربي "لسعد فهد الذويخ"، العرب والحداثة "لعبد الإله بلقزيز"، وصورة المثقف في الرواية المغاربية "لأمين الزاوي" ....الخ.

كما واجهتني عدة صعوبات ككل باحث لعل أبرزها :

-ضخامة الرواية حيث تبلغ عدد صفحاتها 554 صفحة، مما يصعب التطبيق على كل، أو جل المقاطع الروائية، ومع هذا حاولت أن أعطي بحثي هذا حقه من الدراسة.

وفي الأخير لايسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر إلى أستاذي الفاضل "باديس فوغالي" الذي كان عونا، وسندا لي طيلة هذا البحث، كما أتقدم بجزيل الشكر إلى كل أستاذ لم يبخل علي بنصائحه وتوجيهاته التي أسهمت كلها في تكوين هذا البحث.

مدخل :الرواية العربية وإشكالية الأنا و الآخر

إن الحديث عن الرواية العربية، وإشكالية الأنا والآخر يقتضي تعريف الرواية أولا، فالرواية كما جاء في كتاب تحليل النص السردي "هي جنس أدبي غربي الماهية والمنبت ظهرت في العصر الحديث، ثم انتقلت إلى العرب عن طريق الترجمة والتعريب بحيث "تصبح نشأة الرواية العربية نتيجة للثقافة الأوربية"[1].

وهي اليوم تعد أهم الإبداعات الأدبية التي شهدها العصر، فحضيت بعناية خاصة فتراكمت حولها الأبحاث، والدراسات كونها "نوع قصصي مبتكر له مميزاته الأصلية في مستوى المواضيع وله سماته الخاصة في مستوى الأساليب وطرائق الأداة وهو ما يؤدي ضروبا من التصور متميزة للهوية والتاريخ والفرد"[2]، أي أن الرواية نتاج دخيل غربي الأصل، والروح، والمنبت، والرؤية.

فهي تعبر عن واقع الإنسان وهواجسه وتطلعاته، وتحوصل مرحلة هامة في حياة مجتمع ما، لتكون بهذا ديوان الإنسانية عامة، والعرب خاصة.

أما "جيرار جونيت" فيرى أن الرواية " عرض لحدث أو لسلسلة من الأحداث الواقعة، واقعية أم خيالية بواسطة اللغة"[3].

([1]): محمد بوعزة: تحليل النص السردي، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط1، 2012، ص19.

([2]): صادق قسومة: نشأة الجنس الروائي بالمشرق العربي، دار الجنوب للنشر، تونس، ط1، 2004، ص22.

([3]): جيرار جونيت: خطاب الحكاية، تر: محمد معتصم عبد الجليل الأ زدي وعمر الحلي، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2000، ص 45.

يعني هذا أن الرواية تقوم بعرض مجموعة من الأحداث يمكن أن تكون حقيقية، أو خيالية عن طريق اللغة، والتي تمثل العمود الفقري الذي تقوم وتنهض عليه.

أما "ميخائيل باختين "فيري أن الرواية هي الوحيدة المتصلة بالتاريخ في قوله: " أن الرواية هي الجنس الوحيد الذي نشأ وتغذى بالعهد الحديث من التاريخ"[1]، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على العلاقة الوطيدة، أو الارتباط الوثيق بين الرواية، والتاريخ كما هو الحال في رواية "كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد" للروائي الجزائري العالمي "واسيني الأعرج"، لتكون الرواية والتاريخ وجهين لعملة واحدة لا يمكن الفصل بينهما، لأنها ترتبط "بمواقف خالدة لا يجوز أن تنسى أو تهمل.... ارتبطت بشخصيات كبيرة أو بمواقف تاريخية عظيمة الشأن" [2].

لأن الروائي يستقي مادته الحكائية من التاريخ، ويعيد كتابتها وفق ما يبرر له مذهبه وايديولوجيته ورؤيته وأفكاره.

لتبدو الرواية منذ ظهورها، وبدايتها مقترنة بدور الزمن الحركي وفعل التاريخ الذي يملك تأثيرا كبيرا على حياة الفرد، أو حياة الجماعة، كما أن أهميته (التاريخ) ازدادت مع بعض أعمال الكتاب أو الروائيين، لأنهم يعتمدونه مادة أساسية في رواياتهم، ورواية "فيكتور هيغو" " البؤساء" التي صدرت "عام 1862" خير مثال على استيقاء الروائي مادته الحكائية أو الروائية من أحداث

([1]): صادق قسومة:نشأة الجنس الروائي بالمشرق العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص09

([2]): عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، منشورات اتحاد الكتاب الغرب، دمشق سوريا، 1997 ، ص63.

تاريخية، أو من التاريخ وهذا "أهم ما يميز الرواية عن سائر الأنواع القصصية"[1]، وازدادت أيضا أهمية حين ابتكر، وأبدع كتابها وروادها شخصيات لها علاقة، وصلة بالواقع والتاريخ.

فهذا الجنس الأدبي أتيح له أن يواكب الإنسان في بعض حضاراته خلال حقب، وفترات زمنية طويلة من التاريخ، تعبيرا عن أفكاره وهواجسه وشواغله وأحاسيسه وعواطفه وذائقته، وبالتالي هي أداة ووسيلة لرؤية الذات/الأنا والآخر بلمسة فنية جمالية.

ومن البديهي أن الأنا نعني بها العرب، أوالشرق، بلدان العالم الثالث، التخلف ،الضعف، الخوف، الفقر، أما الآخر فهو الغربي / الشمال، المتفوق، المتحضر، المتطور، القوي...

وتعد هذه الأخيرة الأنا والآخر من أهم القضايا، أو المسائل التي تجسدت بشكل جلي وظاهر في الروايات العربية الحديثة، لأن الأنا (الذات العربية) تعود عبر الأزمنة على شراسة، ووحشية، وهمجية، الآخر الغربي (المستعمر) فحاولت أن تعطي لنا صورة حقيقية، لشراسته ودناءته وغدره ونجاسته، وأن تجسد الصراع والصدام القائم بين الشرق والغرب منذ نشأة الكون، فإحساس وشعور" العربي بتفوق الغرب عليه في مجالات كافة هاجسا مريرا أحبط لديه كل محاولات تحسين موقف الأنا بإزاء الآخر والتفكير بالتفوق عليه وبالتالي كان الإحساس بالهزيمة مريرا ولا سيما وهو يحاول إثبات وجوده"[2]

([1]): صادق قسومة : الرواية مقوماتها نشأتها في الأدب العربي الحديث، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000، ص 26.

([2]): محمد صابر عبيد: جماليات التشكيل الروائي، عالم الكتب الحديث، الأردن ،ط1، 2012، ص72.

ولعل أبرز الروايات العربية التي تعرضت إلى إشكالية الأنا /العربي والآخر /الغربي هي رواية "الحي اللاتيني" للروائي" سهيل إدريس"، حيث حدد لنا بطله "بوصفه بطلا شرقيا يحاول التحرر فينجح حينا ويخفق أحيانا أخرى"(1) فمعظم الشخصيات التي توظف من طرف الروائي هي شخصية تقصد باريس بغية الانتقام من الغرب، ولعل أول وسيلة، أو طريقة لفعل هذا هي المرأة الغربية، أو الأوربية المتحررة، كما هو الحال عند "البطل الإدريسي الذي قصد باريس لأسباب عديدة أهمها لقاء المرأة المتحررة، يميل حينا في ثنايا الرواية إلى الانغلاق والخوف وحينا آخر إلى الانفتاح والحب"(2) إذن البطل انتقل في رواية "سهيل " إلى" باريس" "تاركا بيروت لأجل الأنثى، فهي القضية الأولى التي تشغله قبل العلم والحضارة"(3).

ليكون البطل العربي دائما مسافرا إلى الغرب، أو الشمال بحثا عن الأنثى، أو امرأة أوروبية متحررة إذن "يقصدون الغرب.... لإرواء ضمأهم العلمي والجنسي في آن واحد غير أن الجنس يوظف توظيفا رمزيا المقصود به إبراز فحولة وذكورة الشرق بالمقابل تنعيت الغرب بالأنوثة والخضوع تحت الرغبة الجنسية الكاسحة"(4).

---

(1): جان نعوم طنوس: صورة الغرب في الأدب العربي المعاصر، دار المنهل اللبناني، مكتبة رأس النبع، بيروت، ط1، 2009، ص 197.

(2):المرجع نفسه،ص198.

(3):أمين الزاوي: صورة المثقف في الرواية المغاربية، دار النشر الرجعي، الجزائر،ط2009،2، ص474.

(4): باديس فوغالي : جدلية الشرق والغرب في الرواية العربية،مجلة الأدب و العلوم الإنسانية، العدد الثامن، جوان 2007، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة ،الجزائر، ص08.

كما لا يمكنني أن أنسى رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للروائي "الطيب صالح" التي تحكي، أو تروي سيرة شاب سوداني أخذ ينتقم من الغرب (الإنجليزيات) عن طريق الجنس حيث استولى عليهن "منتقما من خلالهن من الاستعمار بطريقة ملتوية تحمل بذور السخرية" [(1)].

وهذا الفعل الذي أقدم عليه البطل العربي هو انتقام من الغرب المستبد الظالم، ومحاولة رد الاعتبار إلى الشرق، الضعيف المقهور.

كما تعرض الروائي "حقي يحي" إلى التنافر القائم بين الشرق والغرب من خلال روايته "قنديل أم هاشم"، و هي رواية تسرد لنا قصة " البطل أو الشاب المصري إسماعيل" الذي انتقل إلى انجلترا لأجل دراسة الطب، ترعرع هذا البطل في حي السيدة زينب، ونشأ نشأة تقليدية محافظة لكن بعد انتقاله أصبح "شابا محروما يشعر بلذة غربية في أن يدنس بين المترددات على المساجد.....إنه جائع إلى الجنس بل إلى النساء كلهن لا سيما نساء أوروبا"[(2)] لكن العلاقة بين الرجل العربي والمرأة الأوروبية، أو الغربية تتسم دائما بالعدائية، والتوتر، والاضطراب، وهذا ما صورته جل الروايات العربية.

ليتضح لنا من هذا أن معظم الشخصيات الروائية (الرجال) يقيمون علاقة بالغرب عن طريق المرأة الغربية المتحررة، على الرغم من أن شخصية الرجل العربي تنكر بعض مظاهر

([1]):أحمد البيوري: في الرواية العربية التكون والاشتغال، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء،ط1، 2000، ص103.

([2]):جان نعوم طنوس: <u>صورة الغرب في الأدب العربي المعاصر</u>، مرجع سبق ذكره ، ص 169.

وأفكار الغرب، أو الأوروبيين مثل تحرر المرأة وفي الوقت نفسه تتبنى، وتبقي على أفكار وقيم أخرى كالدراسة بالغرب، والتطلع على فنونها وآدابها.

والحال نفسه مع رواية "تاريخ الجرح" "لفؤاد شايب" و"عصفور الشرق" "لتوفيق الحكيم " التي تجسد، وتصور التناقض بين الشرق، والغرب من خلال بطلها المصري "محسن" والمرأة الغربية "سوزي" هي "رواية الحلم الرومانسي اتجاه الغرب، رواية الاندهاش والتذلل"[1]؛ ليصبح هاجس التفوق الغربي، والعجز، والضعف العربي حاضرا، ومؤثرا تأثيرا بالغا في بنية العقل العربي، فيحاول الانتقام منه بأي وسيلة، أو طريقة.

أما رواية"الأمير مسالك أبواب الحديد" للروائي الجزائري "واسيني الأعرج" التي صدرت عام 2005 فقد جسدت لنا ثنائية الأنا والآخر من وجهة نظر أخرى (الانفتاح على الآخر).

الأنا/ مجسدة في ذات "الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري" القائد، والمناضل، والسياسي والمتصوف العظيم.

والآخر /مجسد في ذات الأسقف الأول للجزائر، أو القس" أودولف مونسينيور ديبوش" وهي شخصية مسيحية إنسانية عظيمة/ حيث كانت العلاقة بينهما، علاقة حميمة لا يمكن وصفها.

لتصبح هذه الثنائية الأنا / الآخر قضية أساسية، ومركزية في قضاياهم الروائية، حيث راح كل روائي من هؤلاء الروائيين يدلو بدلوه اتجاهها، لأن مواقف الأنا العربية اتجاه الآخر الغربي عديدة.

([1]):أمين الزاوي: صورة المثقف في الرواية المغاربية، **مرجعسبق ذكره ، ص** 473.

ومن خلال ما سبق يمكن استخلاص أمر يتجلى في أن هناك تيارين في الرواية العربية تيار: جسد من خلال روايته انتصارات الأنا العربية، وثقافتها، وحضارتها، وديانتها على الآخر الغربي وحضارته، أي تحقير الغرب وتمجيد الشرق، وتيار: اندهش، وانبهر وأعجب بالآخر الغربي وحضارته فانفتح على كل ما جاء به فنادى بالتبعية والاندماج، ومن هنا " ظهرت أصوات روائية حاولت محاكاة الآخر أدبيا وترديد أطروحاته الاندماجية سياسيا"[1].

لأن في رأي هؤلاء الأنا العربية لم تلتحق بعد بالركب الحضاري، الذي وصل إليه الآخر الغربي، رقي، وازدهار، وتفوق، وتطور، وتقدم، وهو الأمر الذي جعل العربي، أو المسلم ينصهر ويذوب في ثقافة وحضارة الآخر، وينسلخ عن هويته وحضارته الإسلامية، ومما لا شك فيه أن الرواية المغاربية المكتوبة باللغة الفرنسية هي التي سارت وفق هذا التيار، نذكر على سبيل المثال: رواية "المرأة والورود" للروائي"محمد زفزاف" وروايات"حاج حمو عبد القادر" وغيرهم من الروائيين.

إذن فجل هذه الروايات تدعو إلى إتباع الآخر الغربي، والسبب يعود إلى الأنا / الذات العربية دوما تنظر إلى نفسها بنظرة تدني، واحتقار، واستهزاء، وضعف، وقهر، وانحطاط وإلى الآخر بنظرة تفوق، وقوة، ورقي ،وازدهار، هذا يعني "عدم تساوي كفتي الصراع، فالغرب هو المتفوق"دوما سواء رضي العربي بذلك أم لم يرضى"[2].

([1]):أمين الزاوي: صورة المثقف في الرواية المغاربية، **مرجعسبق ذكره ، ص** 91.

([2]):محمد صابرعبيد: جماليات التشكيل الروائي ، مرجع سبق ذكره ،ص123.

والجدير بالذكر أن شخصية هي عنصر محوري يقوم عليها كل عمل سردي، فلا يمكن تصور رواية دون شخصيات كونها تعمل على تحريك الأحداث من فترة لأخرى، وقد وظفت هذه الأخيرة في الروايات التي جسدت هذه الثنائية (الأنا/ الآخر) بسمات عديدة : كالديكتاتور، والمقاوم، والمستعمر، والوطني، والمتمرد، والمكافح، والمناضل...

فالآخر/ الغربي وظف في النص الروائي على أنه، المستعمر المتفوق، المهيمن المركزي، صانع الحضارة، المتسلط دوما.

والأنا/ العربي وظف على أنه المستعمر، المتخلف، البدائي، البسيط، المقاوم والمهزوم الضعيف.

وهذا ما أكده الدكتور"عبد الرحمان منيف"في قوله "ليس هناك تشاؤم، هناك حصار وكلما كان الحصار أكثر، كان علينا أن نكون قوة أكبر للتغلب عليه"[(1)].

فالذات العربية في حصار مستمر من طرف الغربي المستعمر، وهي تقاوم وتناضل من أجل فك هذا الحصار بوسائل وطرق شتى، ليرسم لنا الروائي الأحداث، والمشاهد، وجل الأوصاف والمواقف تصوير للصراع بين الشرق والغرب.

كما تناولت الرواية العربية الهزائم والنكسات التي تعرض لها العرب، وكذا " أنواع الاضطهاد التي مورست على الإنسان العربي وأضاف الصمود التي تحدى بها ذلك الاضطهاد"[(2)].

([1]): أحمد البيوري : في الرواية العربية التكون والإشتغل، مرجع سبق ذكره، ص 125.

([2]):المرجع نفسه، ص128.

وهذا ما تعرض إليه" الأمير عبد القادر الجزائري في رواية "كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد" (معاناة النفي في قصر أمبواز).

ولقد حاولت الروايات العربية أن تتلمس تشكل الوعي القومي العربي مثل: تناول القضية الفلسطينية، والثورة الجزائرية، وحرب الجولان...الخ. وهذا ما تجلى في أعمال جبرا إبراهيم جبرا وآخرون.

فاعتراف العربي" بالهزيمة / هزيمة الذات العربية ينطلق من الإحساس الفاجع بأن الذات العربية هي مصدر البلاء وأساسه ولولا ضعفها واستسلامها لما كان للعدو أن يمزق جسد الأمة العربية على هذا النحو المرعب"[(1)].

أما الروائي الجزائري كتب هو الآخر عن ثنائية الأنا والآخر بوصفه" مجموعة اجتماعية طليعية المهمات والمواقع والنضالية ضد المستعمر الأجنبي فقد اضطلع الروائيون، ذوو التعبير الفرنسي بمهمة محاورة الآخر فكانت نصوص محمد ذيب، كاتب ياسين، مولود فرعون، ومولود معمري، وآسيا جبار، وغيرهم صحوة جديدة ضد الموقف الأدبي، والسياسي الذي تتبناه الأيديولوجية الاستعمارية"[(2)].

([1]): محمد صابر عبيد: جماليات التشكيل الروائي، مرجعسبق ذكره ، ص 79.

([2]): أمين الزاوي: صورة المثقف في الرواية المغاربية، مرجع سبق ذكره، ص 71.

ومن أبرز الروايات التي تظهر فيها ثنائية الأنا والآخر بشكل جلي، وبارز روايتي "مولود فرعون"، رواية" ابن الفقير" التي صدرت عام 1950"، ورواية "الأرض والدم " التي صدرت عام 1953، وأيضا رواية :" نجمة" "لكاتب ياسين" ورواية " اللاز" " للطاهر وطار".

فكل هذه الروايات تجسد، أو تصور لنا معاناة "الأنا الجزائرية" إبان الاستعمار الفرنسي "الآخر" والصراع القائم بينهما، وهذا الأخير (الصراع) يتجلى لنا عندما تحس، أو تشعر الأنا بالإقصاء، والتهميش، وممارسة إكراهات معينة على الأنا، أو الذات المستقلة، ليتحول من صراع ثقافي حضاري ديني فكري، في بعض الأحيان إلى صراع دموي، يهدف إلى محو الآخر من الوجود الإنساني.

وإذا كانت كل هذه الروايات تنظر إلى الآخر بنظرة سلبية هذا "لا يعني الاتكاء المستمر على هذه السلبية والنظر إليها بوصفها حقيقة قارة، فثمة رؤى تحمل في ثناياها طابع الإيجابية وتخلق من الآخر عالما ملائكيا ليستحق التفاعل والاندماج"[(1)]، وهذا ما ورد في رواية " كتاب الأمير" حيث نظر الروائي بنظرة إيجابية إلى الآخر/ الفرنسي.

ومن ثمة فالمبدعون الذين جسدوا ثنائية الأنا/ الآخر تجاوزوا كل المشاكل المحلية، وركزوا على قضايا ومشاكل أعم، وهي الصراعات اليومية التي تخوضها الأمة العربية من أجل ضمان البقاء والاستمرار، لتحقيق أهداف الوعي، وهي أهداف ضد الآخر/ الغربي الاستبدادي الظالم،

([1]): محمد صابر عبيد: جماليات التشكيل الروائي، مرجع سبق ذكره، ص83.

وخير مثال على ذلك رواية " رفقة السلاح والقمر" "لمبارك ربيع" ورواية " النار والاختيار" للروائية المغربية "خناثة بنونة".

حيث جسدت لنا الروايتين وعي العربي، وتحدياته للآخر الغربي انطلاقا من مؤثرات " إيديولوجية وسياسة وفكرية وتاريخية..." [1].

فالأنا والآخر مسألة، أو قضية، أو " إشكالية سردية تختلف باختلاف وجهة نظر الروائي، قد يبرزها بصورة، معقدة، وشائكة وقد يظهرها بصورة واضحة خاصة، إذا اقترنت بالآخر، وهو العدو بحد ذاته، لتصبح الأنا في موقع صدامي، وصراعي على الدوام معه"[2]، حيث يصوغ الروائي العلاقة بينهما عن طريق المقابلة صورة الأنا/ الذات أو النحن العربي وصورة الآخر/ الغربي المتحضر، المتقدم، لتصبح هذه الثنائية أشبه بموضة العصر الحديث تشغل فكر كل روائي عربي، بل أصبحت قيمة مركزية في الخطاب الروائي العربي.

وتدور كل الروايات في " أن كل فعل يقابله رد فعل (مستَعمَر، مستعمِر) (غرب، شرق) ثقافة متطورة، ثقافة تقليدية، تعليم تقليدي يقدمه الشيخ بالزوايا" [3]، ويعود هذا الصراع والتناقض إلى تواجد حضارتين، غربية متفوقة تريد فرض نفسها وشرقية متخلفة تدافع عن نفسها، أما نظرة

([1]): سعد فهد الذويخ: صورة الآخر في الشعر العربي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2009، ص 10.

([2]): ينظر :محمد صابر عبيد: جماليات التشكيل الروائي، مرجع سبق ذكره، ص63.

([3]): إسماعيل حاجم: الصراع الحضاري في الرواية الفرنكفونية المغاربية، دار الأمل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 184.

الغربي / الآخر إلى الأنا العربية المسلمة نجدها في كتابات عديدة غير لائقة وقاسية، وتحط من قيمتها(الأنا)، فهي تصف العربي بالضعف والوحشية والهمجية والتعصب دينيا، والبدائي البسيط...، وهذا ما جاء به كتاب "فولتير" الذي " أطلق أحكاما عدائية قاسية على الإسلام ولاسيما في كتابه " محمد والتعصب"[1].

وفي القرن 18 كانت بداية صحوة الفكر الأوروبي الإنساني إذ تناول معظم المفكرين الأوروبيين الإسلام، والفكر الإسلامي، والحضارة العربية في كتبهم وفق ما ترسب لديهم من أفكار، وتصورات في الذاكرة عن الشرق، والعربي حيث كان يمثل الشرق عندهم" موطن الحكمة... بلاد شهر زاد...وسندباد...وشعبه مجموعة من الشعراء... وشعبه مجموعة من المتعصبين. [2].

كما أن معظم الذين كتبوا عن الشرق، والشرقيين من الغرب لم يكونوا مؤهلين للكتابة خاصة من الناحية العلمية لهذا دائما تخرج عن النطاق العلمي الدقيق البعيد عن الذاتية لتدخل التخيل، وهذا ما نجده في كتابات" دانتي ألجيري" عن الإسلام ونبي الإسلام، فالغربيين من خلال الاستشراق حاولوا أن يفهموا ويسيطروا، ويتحكموا، وينظموا، ويواجهوا بلاد الشرق.

---

(1): محمد راتب الحلاق: نحن والآخر، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1997،ص 19.

(2): المرجع نفسه، ص 25.

لكن ليس من العجب أن ينعتنا الآخر الغربي في كتاباته بهذه الصفات السلبية لأنها" نظرة ذات البعد الواحد التي تتصور الآخر شيطانا، أو ملاكا بعيدا عن الموضوعية... فما من رؤية وحيدة الجانب إلا ومسخت الغير، وجعلته وهين الأهواء وحبيس النرجسية"[1].

ليبدو لي أن الرواية العربية من ظهورها إلى يومنا هذا جسدت ثنائية الأنا /الآخر عبر مجموعة من الرؤى، والأنماط سواء أكانت سلبية أم إيجابية (شرق، غرب، تقدم تخلف، المتفوق البسيط، الاستعماري الوحشي، المستعمر الضعيف، صانع الحضارة، البسيط).

كما لا يمكنني أن أنسى جهود المؤرخين الجغرافيين مثل "ابن بطوطة" ،الذين جسدوا صورة الآخر في كتابتهم من خلال كتب" الملل والنحل" وكتابات" الجاحظ " في رسائله، حيث وظف على أنه المختلف عن دينيا، وعقائديا، وحضاريا، وثقافيا، وفكريا.

(1):جان نعوم طنوس:صورة الغرب في الأدب العربي المعاصر،مرجع سبق ذكره ،ص7.

الفصل الثاني:مواقف

الأنا تجاه الآخر

أولا: ماهية الأنا /الذات

لقد عرفت الذات الإنسانية منذ القدم اهتماما كبيرا ومتزايدا من قبل الفلاسفة اليونان، ثم حضيت بدراسات متراكمة في عصرنا الحالي.

ولكن يبقى مفهوم الأنا يختلف باختلاف أراء وأفكار كل منظر من هؤلاء المنظرين." فالذات لا معنى لها سوى أنها المقابل لـ(الآخر) "Autre" تقابل تعارض وتضاد أو أنها المطابق لنفسه المعبر عنه " Identité "وهو ما نترجمه اليوم بلفظ الهوية أو العينة أي كون الشيء هو هو، عين نفسه"[1]، أي أن الأنا/ الذات هي النفس البشرية بما تملكه، وتحمله من مميزات ومظاهر ثقافية نفسية أيديولوجية وما تحويه من أفكار وطموحات وصراعات وتوترات؛ أي أنها " مركز الشخصية في نفس الفرد الإنسان، فهي تنمو وتفصح عن قدراتها من خلال البيئة المحيطة، أو الوسط الاجتماعي ويبرز الشعور بالأنا من خلال تلازم الذات مع الآخر"[2].

ومن ثمة فالأنا تبرز منذ الوهلة الأولى من ثقافتها وحضارتها ولغتها وأيدلوجيتها وديانتها وبكل ما يحيط بها في الوسط الذي تعيش فيه، فالأنا حين تدرك وتعي نفسها ومقوماتها(لغتها ديانتها، وطنها) تدرك وتعي الآخر مباشرة وهو الذي يختلف عنها، ولهذا لا يمكن لأي كان أن

([1]): محمد العابد الجابري: الإسلام والغرب الأنا والآخر، سلسلة فكر ونقد، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الكتاب الأول، 2009، ص 21.

([2]): سعد فهد الذويخ: صورة الآخر في الشعر العربي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، عمان ،الأردن، ط1، 2009، ص 10.

يصل إلى حدود الذات، أو الأنا ما لم يصل معها، وفي اللحظة نفسها إلى حدود الآخر المختلف والمتباين عنها .

والجدير بالذكر أن لفظ (الأنا) في اللغة العربية هو ترجمة لأداء معنى (le moi) باللغة الفرنسية و(Ego)باللغة الانجليزية و الألمانية، وهذه الأخيرة (Ego) تدل على ما تدل عليه كلمة (ذات) في اللغة العربية.

أما العالم النفسي الشهير" سيغموند فرويد " يؤكد من خلال دراساته وتجاربه على الإنسان، أن النفس الإنسانية أو البشرية تتألف أو تتكون من الأنا(Ego) النفس الذاتية، والهو أو الهي (ID) النفس البدائية والذات العليا(Super Ego) النفس اللوامة"[1]. في حين يرى " كارل يونغ" أن الأنا (Ego)هي" الإنسان العادي الذي يعاني النقص والفقد والغياب"[2]. أما الذات(SELF) في نظره هي التي نطمح ونسعى إليها جميعا، فهي هدف كل إنسان على وجه الأرض لأنها تمثل الكمال الذي يحقق الوجود ويكون الهوية.

والمتمعن في الكوجيتو الديكارتي للفيلسوف (رونيه ديكارت) "أنا أفكر إذن أنا موجود" يستنتج أن الأنا مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمعرفة الجوهرية وبالعقل والفكر، وهي سابقة ومستقلة عن وجود العالم وعن أي وجود أخر.

([1]): محمد مصطفى زيدان: معجم المصطلحات النفسية والتربوية، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، لبنان ط2،2004، ص 323.

([2]): نوال مصطفى إبراهيم: المتوقع واللا متوقع في الشعر المتنبي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ط1،2001، ص09.

إذن فالأنا يقابلها الآخر، فهما وجهين لعملة واحدة لا يمكن الفصل بينهما، فهما متلازمان، فالذات تحقق وتثبت وجودها من خلال تداخلها، وتواصلها وتشابكها مع الآخر.

فعلى سبيل المثال: الذات أو الأنا العربية تمثل الذات الإسلامية، من حيث الدين، واللغة، والعقيدة والتفكير والحضارة...، فالآخر بالنسبة لها هو كل من يختلف عنها دينيا، ولغويا، وثقافيا، وحضاريا كالترك والروم والفرس... فوعي النفس بذاتها يؤدي إلى تكوين الهوية والتي تختلف وتتمايز وتتباين عن هوية الآخر، والأنا أنواع:

ا/الأنا المتعالية:

وهي الأنا السامية العظيمة والمتعالية، وأهم ما يميزها هو الصراع المستمر مع الآخر، وهذا من أجل إثبات وتحقيق كيانها، ووجودها فهي تتمتع بقدرات، وإمكانيات عالية، وعظيمة وهائلة تجعلها تتعالى عن واقعها الاجتماعي، فالأنا متماهية تماما "مع قناعتها المتمركزة على ذاتها وإرغام الآخر على الاعتراف بها"[1]

ب/الأنا الصدامية:

هي أنا تتعارض وتصارع وتتناقص بما تحمله من طموحات وأفكار وآمال مع الآخر مما يؤدي إلى نشوء علاقة صدامية بينهما، أي يتم "تبادل هذا الصراع وتشبعه كلما تشبعت أصناف

([1]): محمد صابر عبيد: جماليات التشكيل الروائي، عالم الكتب الحديث، الأردن،ط1، 2012، ص78.

هذا الآخر، وتعددت في مكان واحد ولاسيما الآخر العدو الذي يحول الصراع من صراع فكري وثقافي وحضاري إلى صراع دموي"[1]

ج/الأنا المتماهية:

هذا النوع من الأنا/الذات تعاني من نقص في جانب ما في شخصيتها وتبحث عما يعوض ويكمل لها هذا النقص حتى تحقق الكمال الذي يتميز به الإنسان، والتماهي "آلية سيكولوجية لا شعورية يتمثل الشخص بواسطة أحد مظاهر وخصائص أو صفات شخص آخر"[2].

ثانيا: ماهية الآخر:

إن الإنسان اجتماعي بطبعه، ولا يمكن أن يعيش بمعزل عن الآخرين، لأنه يتفاعل ويتواصل ويتعامل مع الآخر ليستمر وهذا ما قال به عالم الاجتماع" ابن خلدون"، نقصد بها إلى جانب الأنا /الذات لا بد من وجود الآخر.

والمتتبع لتاريخ هذا المصطلح في الفكر الأوروبي المعاصر يجده قد بدأ مع "جاك لكان " حين تطرق إلى جدلية الذات، والموضوع، وهناك من يرجعه؛ أي" المصطلح" إلى الفلسفة الهيغلية خاصة التحليل الذي قام به" أليكساندر كوجيف" لكتاب" هيغل"،(فينومينولوجيا الروح) والذي تأثر بها "جاك لكان" تأثيرا كبيرا وبالغا، إلى جانب وجود بعض الدراسات العربية المعاصرة التي وظفت الآخر بشكل لافت للنظر وحصر في غالب الأحيان في خطاب الاستعماري.

([1]):محمد صابر عبيد: جماليات التشكيل الروائي ،مرجعسبق كره، ص65.

([2]): نوال إبراهيم مصطفى: صورة الآخر في الشعر العربي، مرجعسبق ذكره، ص 82.

إن الآخر من منظور علم النفس هو مجموعة من" السلوكات الاجتماعية، والنفسية والفكرية التي ينسبها فرد/ ذات، أو جماعة ما إلى الآخرين مما يحيل إلى أن الآخر في مجال العالم للهوية"[1].

والجدير بالذكر هنا أن الآخر هو كل من يختلف عن الأنا، أو الذات ثقافيا سياسيا فكريا....وقد يكون هذا الآخر فردا، أو جماعة، أو شعب كما قد يكون قريبا، أو بعيدا، صديقا أو عدوا، أو شقيقا.

فالآخر إذن هو" التكوين الثقافي والجغرافي، والإنساني عموما المغاير للغرب، والمسمى الشرق"[2].

فالآخر بالنسبة للعربي، أو المشرقي هو الغربي بكل ما يحمله من آمال و أفكار وطموحات وإيديولوجيات.

وعلى سبيل المثال:

الأنا / العربي ـــ الآخر /الغربي

الأنا / المرأة ـــ الآخر / الرجل

---

(1):سعد فهد الذويخ: صورة الآخر في الشعر العربي، مرجعسبق ذكره، ص 10.

(2)سعد البازعي: لستقبل الآخر، ،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء ،المغرب، 2004، ص 34.

ليكون التعرف على الآخر بمستويات عدة: كالجنس (ذكره أو أنثى) العرق (عربي أو غربي) الدين (الإسلام أو المسيحية) اللغة (العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية...)، والملاحظ أن الأنا والآخر في غالب الأحيان العلاقة بينهما هي علاقة تأثير و تأثر متبادل فيما بينهما، دون أن يتماهى أحدهما في الآخر لتظهر لنا صورة (الآخر) دوما ترتبط ارتباطا وثيقا بالأنا في إطار فعالية جدلية، وضمن هذا المفهوم تتكون لنا "فكرة الآخرية من حجم الصراع بين الإنسان والإنسان، وكل صراع بين إنسان وإنسان يبتدئ من تموضع كلا الطرفين في حيزي الآخرية فلا يمكن أن يحدث بينهما صراع ما لم يكن كل منهما آخر بالنسبة للآخر "[1].

وعلى سبيل المثال الأنا العربية /الآخر بالنسبة لها هو الغربي المتفوق، والمسيطر والمهيمن على الساحة الحضارية، والفكرية، والثقافية، والسبب يعود إلى ضعف العربي على مستويات عدة مما يجعله بحاجة ماسة إلى الآخر الغربي.

إذن فالآخر "في أبسط صوره هو مثيل، أو نقيض الذات أو الأنا، إذ لا يمكن الحديث عن الآخر بمعزل عن الذات"[2].

([1]):محمد صابر عبيد: جماليات التشكيل الروائي، مرجع سبق ذكره، ص65.

([2]):سامي الوافي: المثاقفة النقدية وسؤال الهوية: تفاعل الذات بالآخر، مجلة الآداب، العدد الثاني،2014، جامعة الملك سعود، الرياض، ص4.

والجدير بالذكر أن الذات لا يمكن أن تعرف نفسها إلا من خلال تعرفها على الآخر، فالآخر بالنسبة لها هو معالم الانقطاع، لأنه "مختلف عنها وبالتالي لا ينتمي إلى نظامها أيا كان"[1] وهذا ما أكده "جاك لاكان"

حين وصف الآخر بنية رمزية وشعورية تساعد الأنا، أو الذات على تحقيق وجودها، أو كينونتها ضمن علاقة جدلية، كما يمكننا تحديد دلالاته (الآخر)من خلال سياقين:

الأول: "معرفي وعلى ضوئه يبدو الآخر مفهوما تكوينا أساسيا للهوية أي للذات وهي تحدد هويتها فلا هوية دون الآخر"[2].

فمن خلال اختلاف الأنا، أو الذات عن الآخر دينيا، لغويا، ثقافيا، عقائديا، عرقيا تكون الهوية، والتي تختلف بدورها عن هويته.

أما السياق الثاني: فهو سياق "قيمي أخلاقي يكسب الآخر من خلاله قيمة أو موقعا في سلم تراتبي يكون من خلاله مقبولا أو مرفوضا طيبا أو سيئا"[3]. فهذين السياقين اللذين يحددان دلالات الآخر يجتمعان غالبا أو في بعض الأحيان لتكوين وتحديد الهوية، والتي هي جزء من موقف قيمي أو أخلاقي.

([1]):،سامي الوافي: المثاقفة النقدية وسؤال الهوية: تفاعل الذات بالآخر،مرجع سبق ذكره،ص4 .

([2]):المرجع نفسه، ص 6.

([3]):المرجع نفسه، ص 7.

لنستنتج أن الأنا /الذات والآخر هما وجهين لعملة واحدة لا يمكن الفصل بينهما، فكل منهم يهدف إلى تحقيق وإثبات وجوده وكينونته على حساب الآخر.

ثالثا:مواقف الأنا اتجاه الآخر

إن العلاقة بين الأنا/ العربي والآخر/ الغربي على مر العصور والأزمنة لم تنقطع يوما، بل كانت مستمرة، فمنذ نشأة الكون والإنسان العربي ينتقل ويرتحل بحثا عما يسده له حاجياته، ليبدأ في التواصل والتعامل مع غيره من الأمم والشعوب الأخرى ليكون"اتصال الشرق العربي بالغرب الأوروبي عبر ضفي المتوسط واتخذ أشكالا متعددة منها ما هو تجاري ومنها ما هو سياسي وعسكري ومنها ما هو إنساني"[1] ؛أي أن العربي يحتك بما جاوره من الأمم الأخرى إما عن طريق الحروب، أو التجارة، أو المعاهدات والمواثيق، ومن خلال هذا الاحتكاك والتواصل يكون العربي رؤى مختلفة، ومتعددة، ومتباينة عن الآخر الغربي، ولقد جسدت في متون روائية كثيرة .

1- الرؤية الانبهارية / موقف الإعجاب:

ونقصد بها النظرة القائمة على الإعجاب والاندهاش، والانبهار بالآخر الغربي، وهذا لما وصل إليه من تفوق، وازدهار، ورقي، وتقدم.

فأصحاب هذه الرؤية يرون أن الغرب بما حققه من ازدهار وتقدم في مختلف مجالات الحياة وعلى كافة الأصعدة السياسية، الاقتصادية، والعلمية، والعسكرية، والثقافية، والحضارية، فهو

([1]):إيمان الصالح : جدلية العلاقة بين الشرق والغرب وهاجس الخوف المتبادل، مقال في الإنترنت ضمن موقع http//www.puplct.alwatan.voic.com: ، 2015/1/17 ، 14:00.

جدير أن ننبهر ونعجب به، بل ويستحق الاحترام والتقدير أيضا، فغالبا ما تكون هذه الرؤية"في البداية فطرية ساذجة، أو نظرة واعية نسبيا ما بالفوارق الموجودة بين الشرق والغرب بين المكان الأصل ومكان الغواية والافتتان"[1]

فالعربي إذن يدرك ويعي الاختلاف والتباين الكبير بينه وبين الغربي، فالعربي ذو عقلية متخلفة، بسيطة، بدائية، نشأ نشأة محافظة وتقليدية، أما الغربي فهو ذو عقلية، متقدمة، متحررة وقوة جبارة عظيمة، فتنتج عن هذه المقارنة نظرة احتقار وتدني للأنا، ونظرة تفوق، وازدهار، ورقي إلى الآخر وقد وصل هذا الإعجاب "بأصحابه إلى تعطيل المقاومة وفعاليات الوعي"[2] .

والسبب يعود إلى أن معظم المفكرين الشرقيين الذين اعتمدوا السياسة الانتقائية لم يهملوا الأسباب الموضوعية، وهذا ليتمكنوا من الوصول إلى أسباب القوة عند الآخر والضعف والتدني عند الأنا، ليستنتجوا في النهاية إلى أن هناك منطلقات يفتقدها الشرقي في حين يمتلكها الغربي.

ومن الروايات التي جسدت هذه الرؤية رواية"رفاعة الطهطاوي" "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" التي تسرد لنا رحلة طالب مصري في أواخر القرن 19 عشر إلى باريس فيعجب بهذه "المدينة الأوروبية وفنونها الراقية وثقافتها المتألقة"[3]، وأيضا بجغرافيتها، وسكانها وقوانينها، وفنونها

([1]):جميل حمداوي: صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي، **مقال في الإنترنت ضمن الموقع** . 12:30،2015/1/1، hpp//ww.el ana .el akhare.com.

([2]):محمد راتب الحلاق:نحن والآخر، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، سوريا 1997، ص34.

([3]):باديس فوغالي: جدلية الشرق والغرب في الرواية العربية، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد الثامن جوان 2007، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة ، ص10

وعلومها، ودستورها، وهذه الرواية تبين لنا احتقار العربي لعقليته الشرقية وتمجيد عقلية الآخر الغربي، ليكون بهذا "رفاعة الطهطاوي" أول من يعترف بتقدم الغرب في مختلف العلوم رغم أنهم لا ينتمون إلى ديننا الإسلام.

فهؤلاء الروائيون يدعون إلى محاكاة الغرب، وطمس الهوية العربية، لأنه النموذج في الحرية والديمقراطية والمساواة والدولة المدنية الحديثة، وحقوق الإنسان، وهاجس الخوف الذي يتملك قلب كل عربي من الغربي، ليس إلا نتيجة للتخلف والضعف والانحطاط وانغلاق الأنا على نفسها، وهذا الضعف الذي يكابد الشرق، أو العرب هو من إنجاز الشرقي نفسه فلا يجب أن نحمل أو نوجه المسؤولية كاملة إلى الغرب.

والحال نفسه مع رواية علي المبارك"علم الدين"، حيث جسد لنا فيها الرؤية الانبهارية بالحضارة الغربية وعلومها وفنونها وثقافتها، فهم بهذا رجحوا كفة الغربي وحضارته على كفة العربي بكل ما يملك من إرث حضاري وثقافي وديني.

2- موقف التماهي بالغرب:

إن هذا الموقف يدعو صراحة أو علنا للالتحاق بالحضارة الغربية، ولعل قول "سلامة موسى" يؤكد ما قلناه إذ يقول:"هذا هو مذهبي الذي أعمل به طول حياتي سرا وجهرا، فأنا كافر

بالشرق مؤمن بالغرب، وفي كل ما أكتب أحاول أن أغرس في ذهن القارئ تلك النزاعات التي اتسمت بها أوروبا"[1] .

ومن خلال مقولة "سلامة موسى" يتضح لنا أنه يعمل على توجيه كل العرب إلى الغرب، والانفصال نهائيا عن الشرق، وهذا يؤدي بنا إلى الانصهار والذوبان الكلي في حضارة الآخر /الغربي وطمس هوية الأنا/ العربي ليصبح التماهي بالغرب، وتكرار نموذجه "يعني الحرمان من أهم وظائف الحضارة وتبنى قيم الآخرين"[2]، لأن وظيفة الحضارة هي قدرتها على إنتاج القيم ورؤيتها للذات وللآخر، لكن هذه الدعوة (إتباع النموذج الغربي الجاهز)أخفقت فيما بعد، لأن الذات العربية واعية وتدرك بأن لها إرث ثقافي حضاري إسلامي زاخر لا بد من الحفاظ عليه والعمل على تطويره فقط؛ إذن فالحداثة التغريبية "في المجتمعات العربية ليست طويلا ولا يتجاوز قرنا في أفضل أحوال اشتغالها إلا أن أثاره في الجسم الاجتماعي والثقافي لم تكن قليلة الشأن"[3].

هذا يعني أن الحركة التغريبية أثرت تأثيرا بالغا في الثقافة العربية رغم أنها لم تدم طويلا.

3- الرؤية الحضارية:

إن هذا الموقف يرى أن انغلاق الذات العربية على نفسها لا ينفعها، بل لابد من تبادل الخبرات والمعارف والعلوم مع الغربي، ولكن لا يجب أن تتبعه في كل شيء لأنه يضرها ولا

([1]):محمد راتب الحلاق: نحن والآخر، مرجع سبق ذكره، ص 37.

([2]):المرجع نفسه، ص38 .

([3]):عبد الأحمد: من النهضة إلى الحداثة لعبد الإله بلقزيز، مقل في الانترنت ضمن الموقع ، http//www.aljarida.com،2/1/2015،14:00.

ينفعها، إذن هو موقف "يأبى الانكماش على الذات لأن إنكار الثقافة الغربية لا يستطيع أن يشكل في حد ذاته ثقافة، ولأن الرقص المسعور حول الذات المتفردة، لن يجعلها تنبعث من رمادها"[(1)] فهذه النظرة تدرك خير الآخر، وشره، وتدرك أن أوروبا كما نفعتنا كثيرا قد تضرنا أكثر، ولعل ما يبرر لنا قولنا هو ما صرح به "عبد الحميد الزهراوي":"لا ينفعنا الجمود، ومعاداة كل أشياء الأجنبي باسم الوطن فإن الوطن للبشر واحد هو دار الأعمال والتكاليف التي تطلب من الكل وتوزع على الكل ويتبادلها الكل"، فأصحاب هذا التيار لعلهم أقرب إلى المنطق والواقع لأن نظرتهم معتدلة متوازنة، يأخذون خير أوروبا ويتجنبون شرها، فهم يستعملون العقل والفكر ويبتعدون عن التقليد الأعمى ليكون الحوار الحضاري هو الأداة، أو السبيل الوحيد لبث الطمأنينة في قلوب العرب والغرب، هم"تنبهوا إلى أسباب تقدم الغرب ماديا وتقنيا وعلميا وثقافيا، ولكنهم تنبهوا أيضا إلى قيمة الشرق وتميزه على مستوى القيم الدينية والروحانية والدفاع عن أصالته وعاداته وتقاليده وحضارته وشرقيته"[(2)]؛ وهذا ما جسدته لنا روايات كثيرة لعل أبرزها رواية "عصفور من الشرق" "لتوفيق الحكيم" و"الحي اللاتيني" "لسهيل إدريس"، و"قنديل أم هاشم" "لحقي يحي "و "موسم الهجرة إلى الشمال" "للطيب صالح" ورواية "الغربة" "لعبد الله العروي" و"نيويورك " "ليوسف إدريس" ،ورواية "دفتر العشق" "لجمال الغيطاني" ورواية "القاهرة...باريس...ذهاب... عودة" "لسهير توفيق" وغيرها من الروايات.

([1]):محمد راتب الحلاق: نحن والآخر، مرجعسبق ذكره، ص 38.

([2]):المرجع نفسه، ص 39 .

فهذه الروايات تعكس لنا التفاوت الحضاري بين غرب التقدم والعلم والتكنولوجيا وشرق التخلف والجهل والخرافات والأساطير، هي نصوص روائية تدرج ضمن الرؤية الحضارية التي تصور العلاقة الجدلية بين الشرق والغرب، الأنا/ الآخر.

4- الرؤية العدوانية

يرى أيضا هذا الموقف أن الآخر الغربي مخالفا ومقابلا للذات أو الأنا العربية، لأنه يحاول إقصاءها وتهميشها ومحوها بممارسة كل أنواع العدوان، والاضطهاد عليها فيصبح الغير بالنسبة لها وحشيا ومدمرا ومستعمرا ولا إنسانيا " لتنتقل العلاقة بينهما من مرحلة التعايش والسلام إلى مرحلة العدوان والصراع الجدلي"[(1)]، ليكون هدف كل واحد منهم التخلص من الآخر بأية وسيلة كانت، وهذا ما تولد "عنه فكرة الاستعمار الحديث الذي قام على الغلبة والهيمنة، وفرض النموذج الأوروبي والأمريكي على شعوب آسيا وإفريقيا"[(2)]؛ لتتسم العلاقة بينهما بالصراع المسلح الدموي التي زهق فيها أرواح مئات الآلاف والملايين من العرب والمسلمين فينتج صراع وصدام وفق معادلة طرفها الأول (الآخر) تحكمه قوة استعمارية تريد فرض هيمنتها وسطوتها بأساليب الردع والإذلال، والطرف الثاني تحكمه ثقافة عربية وإسلامية ومعتقدات روحية، لتترسخ في ذهنية العربي الطبيعة العدوانية للغرب (الحملات العسكرية التي شنتها أوروبا على الشرق منذ الحروب الصليبية إلى يومنا هذا).

([1]):جميل حمداوي: صور جدلية الأنا والآخر في الرواية العربية، مقال في الإنترنت.

([2]):باديس فوغالي: جدلية الشرق والغرب في الرواية العربية ، مرجع سبق ذكره، ص 09.

إذن الشرق والغرب عدوان تاريخيا، فهما لا يلتقيان أبدا ولا يمكن لهما العيش جنبا إلى جنب، في إطار علاقة إنسانية عالمية واحدة، بل يسعى الغربي دائما إلى تقويض وتدمير العربي بما أنه يهدد مصالحه، وهذا ما أدى إلى ظهور تيارات، أو حركات تحمل الحقد والضغينة والكراهية إلى الغرب، وتحاول ضربه من كل جهة، فإذا انتصر أحدهما على الآخر ينتج ما سماه هيغل (بجدلية العبد والسيد) .

لتكون العلاقة دائما بين الشرق والغرب سلبية ولا يمكن لها أن تكون إيجابية قائمة على المحبة والصداقة والتعايش والسلم والسلام؛ بل هما يعيشان في صراع مسلح بدل التفاعل الحضاري والمثمر بينهما، بسبب الكراهية والعدوان، وهذا ما جسدته الروائية "فدوى طوقان" في روايتها "الرحلة الأصعب" فهي رواية تحمل صورة عدائية للآخر مبنية على النبذ، والاحتقار، والازدراء، الأنا مجسد في شخصية فلسطينية، تعرضت إلى التشريد والتعذيب والطرد من أرضها، والآخر هو الصهيوني المستعمر المستغل، فالرواية من بدايتها إلى نهايتها نظرة سلبية للغرب، قائمة على الصراع الجدلي والعدوان الوجودي.

5- الرؤية الحقوقية والسياسية:

إن هذه الرؤية قائمة على تشخيص النظام السياسي، وطبيعة الحكم في دولة من الدول وكما ترصد "علاقة الحاكم بالمحكوم سياسيا ومدنيا وعسكريا وحزبيا ونقابيا وتشخيص الحالة السياسية للدولة، وتبيان وضعية الحريات العامة والخاصة وحقوق الإنسان"[1].

([1]):جميل حمداوي: صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي، مقال في الانترنت .

وهذا ما تطرقت إليه بعض الروايات العربية، حيث نظرت إلى علاقة الأنا بالآخر من زاوية سياسية، فصورت الغرب على أنه مكان للحرية والمساواة والديمقراطية الحقة، والإنسانية المطلقة ومملكة لحماية حقوق الإنسان من الاستبداد والقهر والرعب والعنف والقمع الذي يسلطه العربي على غيره، ومن الروايات التي تحمل هذه الرؤية الإنتقادية للسياسية العربية، مبرزة محاسن وإيجابيات السياسة الغربية المتمدنة والمتحضرة رواية"شرق المتوسط" للكاتب العربي المعروف"عبد الرحمان منيف" حيث تروى لنا الرواية انبهار"رجب إسماعيل "بالسياسة العادلة والديمقراطية الحقة التي يمارسها الغرب في حين يصف لنا الدول العربية بالقهر، والعنف، والاستبداد ،وانتهاك حقوق الإنسان، وقمع الأشخاص الداعين إلى الثورة على هذا النظام السياسي الفاسد، لأنهم يحاولون تحقيق التغيير على كافة الأصعدة ،وهذا يمس بمصالحهم ونجد هذه الرؤية جلية في رواية "نجمة أغسطس المصري والآخر الروسي" للروائي المصري"صنع الله إبراهيم" حيث وظف الأول (المصري) أنه يعيش في الفقر، والقمع، والاستبداد، بينما يعيش الثاني (الروسي) في حرية وتعليم ومساواة، فيصبح استعمار الغربي للعربي بحجة جلب وزرع الحضارة والتقدم والرقي والديمقراطية والحرية والمساواة اللامتناهية والمطلقة في البلدان العربية، التي تعيش تحت نار القمع، والاضطهاد والاستبداد الذي سلطه مافيا الدولة عليها "السياسيين" .

رابعا: الهوية

إن الحديث عن الهوية أو الخصوصية في عصرنا يعد حديثا متخلفا، بدائيا، شاذا، لا يواكب التطور الحضاري خاصة في ظل ما يسمى بالنظام العالمي الجديد، أو العولمة التي تسعى أو

تهدف إلى إلغاء جميع الحدود الفاصلة – الثقافية، الجغرافية، الدينية، التاريخية– بين الشعوب والأمم، وجعل العالم قرية كونية صغيرة، إلى درجة تزول وتندثر فيها جميع الخصوصيات والهويات التي تحددها مجموعة من المشتركات (القواعد / المبادئ / الكليات / المنطلقات) والتي تسري أو تنبض في دمنا أو عروقنا دوما.

لكن في حقيقة الأمر أن هذا النظام الجديد هو استبداد حضارة مهيمنة (الحضارة الغربية) على حضارة أخرى ضعيفة (الحضارة العربية)، وفي الوقت نفسه إجبار للشعوب والأمم عن التخلي وترك ثقافتها وحضارتها وهويتها باعتبارهم مشتركات دونية بدائية.

1-ماهية الهوية

إن الإنسان العربي في بحث مستمر ودائم عن ذاته، أو بالأحرى خصوصيته "نتيجة ما يعانيه من شعور حاد يفقدان الهوية، بعد تضليله عمدا في أغلب الأحيان عن خصوصية ناجمة عن خصوصية الواقع الذي تعامل معه "[1]، أي أن الهوية العربية موجودة لكنها ضائعة بفعل عدة أزمات وانكسارات ومنعطفات تاريخية حاسمة؛ يجب البحث عنها لاسترجاعها واستيرادها وهذا البحث"يهدف أصلا إلى المساهمة في عملية النهوض الشاملة التي تتطلع إليها الأمة، إنه تنمية حضارية هدفها خوض نضال حضاري ضد تحد حضاري يواجهنا، وما زلنا نتعرض لضغوطه المتزايدة"[2].

([1]):محمد راتب الحلاق: نحن والآخر، مرجع سبق ذكره، ص 47.

([2]):المرجع نفسه، ص51.

كما أن هوية الأنا/ العربي تظهر من خلال وعيه بالآخر الغربي، والإحساس بوجوده المختلف والمتباين، والهوية هي:

"الأصل والجوهر، فالهوية من (هو) بمعنى جوهر الشيء وحقيقته، وبالتالي فإن هوية الشيء ثوابته التي تتجدد ولا تتغير تفصح عن ذاتها ما بقيت الذات على قيد الحياة"[1].

فالهوية هي خصوصية الذات ثابتة، أصلية تجدد لكنها لا تتغير، فهوية العربي تبرز من وجود الآخر وحضوره والوعي به (الغربي).

لأن إدراكه ووعيه يؤدي مباشرة إلى شعور الأنا/ الذات بالاختلاف و التمايز عنه.

إذن ماهو ثابت وأصلي هو"الهوية أعني الخصوصية التي تتميز بها الأمة من سواها من الأمم بمعنى أن هذه القسمات الثابتة في الشخصية الحضارية، والتي نسميها هوية تستعصي على التطور والتغير حتى ولو كان غزوا تغريبيا"[2]، كما أن إحساس الذات العربية بهويتها تزداد أكثر عندما تعقد مقارنة مع الآخر الغربي، سواء من ناحية التضاد والاختلاف، أو التوافق التشابه لما تعاين "الذات الآخر تظهر الفوارق الخلقية والخُلقية والإيديولوجية تبدأ الهوية بالتشكل ،ويبرز الوعي بوجود هوية الآخر أيضا"[3].

([1]):سعد فهد الذويخ: صورة الآخر في الشعر العربي ،مرجع سبق ذكره، ص 25.

([2]):محمد راتب الحلاق: نحن والآخر، مرجع سبق ذكره، ص 53.

([3]):سعد فهد الذويخ: صورة الآخر في الشعر العربي، مرجع سبق ذكره، ص 26.

فالأنا / الذات العربية تؤكد دائما على صفاء ونقاء وتفوق حضارتها وثقافتها، وهويتها ،وعقيدتها المختلفة عن ثقافة وحضارة وفكر الآخر الغربي، فيشكل هذا وعيا وإدراكا بذاتها وهويتها التي ترتبط ارتباطا وثيقا بأمرين: النسب العربي، واللغة وهما من أبرز عناصر الوعي بالذات، فمن خلال هذين العنصرين تتشكل الهوية العربية ويتم التعرف على الآخر (العجم) فالعربي نسبه عربي يتكلم العربية دينه الإسلام، أما الغربي فهو غير العربي لا يتكلم العربية ولا يدين الإسلام، وبامتلاك العربي لهوية تمكنه من تشيد مجتمعا عربيا متوحدا يسعى إلى تحقيق أو إنجاز أشياء من بينها بناء مشروع حضاري نابع من العقل والوجدان، وفي المقابل نجد الغربي يعمل على محو هذه الهوية تارة باسم التمدن والتحضر، وتارة باسم التقدم والتطور، أو العمل على إلحاق الأمم الأخرى بها وصولا إلى التبعية الكاملة والعمياء، وهذا يفقدها قيمتها وهويتها؛ أي ذوبان وانصهار كلي لهوية الأنا أو الذات في هوية الآخر.

2- الهوية بين الانفتاح والانغلاق:

إن العلاقة بين الجماعات البشرية المختلفة، إما تتسم بتأزم وذلك لاختلاف مصالحها ومطامعها ونزعة الناس العدوانية فيتأزم الوضع وتنشأ الخلافات والنزاعات المسلحة والحروب وإما تتسم -العلاقة- بالتفاهم والتعاون والتبادل فيعمها السلام والأمان، فالعلاقة أو الحالة الأولى هي ما ينطبق على علاقة الشرق بالغرب، فهل العلاقة العدائية بينهما تجعل الذات أو الأنا منغلقة على نفسها ترفض كل ما يتعلق بالآخر، أو أنها منفتحة عنه وتقتحم عالمه المختلف؟.

إن الانفتاح على الآخر وفتح كل الأبواب أمام حضارته وثقافته يؤدي إلى الانسلاخ عن الهوية والانفلات من المبادئ والقيم، وبالتالي الذوبان والاضمحلال في حضارته، فهذا يعني أن الانفتاح مع أو على "الآخر تتطلب حسا ويقضة ذهنية عالية، ودائمة، لأن السقوط في شرك المرجعية يعني الوقوع في الاستيلاب الهوياتي فتصبح الهوية الثقافية ....معرضة للتدمير من الداخل وبطريقة هادئة، فالهوية عندئذ تكون نسخة متماثلة مع هوية الآخر"[1]، لأن البيئة الثقافية العربية تختلف وتتباين عن البيئة الغربية الثقافية، فالأولى مسلمة يمثل الدين (القرآن الكريم) مصدر قوتها المركزية الفاعلة والمؤثرة، أما الثانية فهي بيئة كافرة لادينية أي لائيكية: غير مسلمة

وهذا الموقف الذي دعا إلى غلق جميع الأبواب، والمنافذ أمام معارف وعلوم غير المسلمين ينظر دوما إليهم على أنهم الشر والسيطرة والهيمنة والاحتلال، أي أنه موقف "الرفض القاطع للانفتاح على العالم، ولمبدأ التثاقف، ويحكم على نفسه بالانسحاب من التاريخ الإنساني والتقوقع على الذات واجترار الموروث من دون تحيين وتأرخة"[2]، فترتد الذات بشكل عنيف على نفسها وحضارتها وثقافتها ومجتمعها وتغلق كل الأبواب على ثقافته الآخر الغربي، ترفض الانفتاح والتحديث بشكل قطعي مطلق، لأنها تملك الحقيقة المطلقة فهي ليست بحاجة إلى معارف وعلوم وتجارب الآخرين (الغرب).

([1]):سامي الوافي: المثاقفة النقدية وسؤال الهوية: تفاعل الذات بالآخر، مرجع سبق ذكره ،ص9.

([2]):عبد الإله بلقزيز: العرب والحداثة دراسة في مقالات الحداثيين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2007، ط1، ص24.

فالانفتاح في نظرهم ليس إلا أسلوبا، أو وسيلة جديدة تستخدمه القوى الكبرى "الدول الغربية" لفرض قوتها الاستعمارية وتكريس مبادئ الاستقلال والتبعية، لكن هذا الموقف في مأزق خطير، لأن الثورة الحداثية تحاصرنا من كل جهة، وتفرض نفسها علينا في مختلف مجالات الحياة، فنضطر دوما إلى استخدام أدواتها؛ فيقود هذا التناقض الحاد إلى "وجود ثغرات كبيرة في الإدراك والوعي والقدرة على استيعاب النتائج المتمخضة، وبالتالي يقود إلى صدمات نفسية وفكرية تعجل بحصول ردات فعل عنيفة تنعكس بشكل ظاهر، تشدد عنيف وتعصب ومواقف سلوكية غير صائبة"(1) .

كما أن الوضع السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، الذي تعيشه الأمة العربية اليوم مزري، ومختلف خاصة في المحافل الفكرية– يؤدي بها إلى فراغا كبيرا فينعكس ذلك على شكل انفتاح منفلت وانزلاق متشتت يقود إلى الهاوية مباشرة، أما الانغلاق المتشدد يعمل على " حفظ النفس أو الذود عن وجود يتهدده المحو الحضاري والثقافي من خلال العود إلى الذات والتشرنق عليها"(2). وهذا تأكيد للذات أكثر مما هو تأكيد للهوية، خاصة وأن الغرب يحاولون إلحاق العرب وغيرهم من الأمم الأخرى في تلك سياسته الإمبريالية، وفرض حضارة معينة بجوانبها المادية والمعايير، فهذه المركزية الغربية تقدم للعرب مزيدا من التأخر، والتخلف، والضعف، والانحطاط والفقر.

---

(1):مرتضى معاش: في إشكالية الانفتاح والانغلاق ،مقال في الانترنت ضمن الموقع، ww.mortada.com ،2015/2/8/، 12:30 .

(2):عبد الإله بلقزيز: العرب والحداثة، مرجع سبق ذكره، ص 25.

فأصحاب هذا الموقف إذن يرفضون الانفتاح على الآخر/ الغربي، ويدعون إلى الانكفاء على الذات والعودة إلى الموروث العربي لنستمد منه القوة، وبالتالي الرجوع إلى العصر الذهبي للأمة للنموذجية، والإقتداء به، فهذا الرفض والانغلاق ينطلق من الذات ويؤكد على استقلال الفكر العربي والهوية القومية والوحدة التكاملية وما تحتويه من مكونات روحية، تاريخية، مادية، هو رفض للتسول الثقافي والكسل المعرفي والتبعية العمياء؛ أي الانسلاخ عن الذات.

وكل هذا يولد صراع ومواجهة بين الأنا/ العربي والآخر/ الغربي؛ هي مواجهة تفرض علينا أولا التعامل مع الذات العربية وموروثها أو تراثها الزاخر بشكل صحيح، أما التعامل مع الآخر يكون بشكل ناقد لا مجرد زبون يستهلك ويستورد كل الأشياء دون النظر إلى مدة صلاحيتها.

أما الموقف الذي يتبنى فكرة الانفتاح، أو يؤكد على أولوية الانفتاح والانخراط في المسيرة العالمية والتطبع بمفاهيمها الثقافية الحديثة من أجل البقاء في الركب الحضاري، وإنشاد التقدم والتطور باستمرار دائم، فالغرب بالنسبة إليهم "مرآة تساعدنا على رؤية أنفسنا في السلم الحضاري وتحدد لنا على أية درجة نقف... وكيف سنتوجه وأية أدوات نستعمل لاستكمال مشروع المعاصرة" (1) إذ يرى هؤلاء ليس هناك ثقافة محلية صافية ونقية، بل كل ثقافة فيها اختلاط وتأثيرات خارجية، ودليل ذلك انفتاح المسلمين قديما على الثقافات الخارجية : الفارسية، اليونانية، وهذا التحقيق التقدم والتطور، والرقي، وربما فكرة التقدم"ليست مستقاة من تاريخ ثقافي أو اجتماعي عربي إسلامي موروث عن حقبة ما قبل النهضة، وإنما هي مستعارة من التراث الأوروبي

---

(1):سامي الوافي: المثاقفة النقدية وسؤال الهوية: تفاعل الذات بالآخر، مرجع سبق ذكره، ص10.

الحديث"[1]، أي أن الماضي أو التاريخ لا ينكر وجود صلات ثقافية بين العرب والغرب، واتخذت طابعا سلميا بعيدا عن العنف، وكانت لها فوائد جلية ،وجمة على الأدب، والثقافة بشكل عام ،وهذا التأثر والتأثير المتبادل، يجعل الأفكار والمفاهيم، والتصورات تتفاعل "ثم تنفتح وتهذب وتبدأ بإنتاج المعارف الحقيقية"[2].

حيث نجد "رفاعة الطهطاوي"، يؤكد على ضرورة مخالطة الآخر/الغربي عن طريق المخالطة اللغوية، فالغربي قدم خدمة لا تنسى ولا تنكر للأدب العربي ولم يقتصر هذا على الأدب فقط بل اتسع ليشمل جميع العلوم والمعارف: الفلسفة، الطب، الفلك، الهندسة ... الخ.

فهذا الموقف ينادي التقدم والرقي، حتى وإن كان على حساب المبادئ، والثوابت، والأسس التي قامت عليها مجتمعاتنا العربية، ويتجسد هذا في التحديث المقلد لمظاهر الحضارة الغربية والتركيز على الاستهلاك، دون محاولة فهم جوهر التحديث، فهم يلتحقون بالمشروع الغربي للحضارة دون قيد، أو شرط في اعتبارهم أن التبني المطلق لمناهج الغربيين ومقولاتهم ،وأساليبهم هو مدخل حقيقي لبناء عصر، أو بناء القوة وتحقيق التقدم.

غير أن الالتحاق بالمشروع الغربي، والتخلي عن الهوية هو "خيانة ما في ذلك ريب لأنها ببساطة دعوة لأن تغادر الأمة إهابها، لتسكن في إهاب مستعار، لم يقدم على مقاسها، وسوف

([1]):عبد الإله بلقزيز: العرب والحداثة، مرجع سبق ذكره، ص 27.

([2]):عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة ، تفكيك الخطاب الإستعماري وإعادة تفسير النشأة، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، 2003، ط1، ص38.

يبقى ثوابا مستعارا، لا يدفئ، تدفع ثمنه أو بالأحرى أجرته... تصبح كالغراب الذي نسي مشيته قانعا بعرج أبدي"[1].

كما أن الانغلاق على الذات وموروثها، يؤدي إلى جمود، وتحجر عصر بعينه، وهو حكم على النفس بالموت، والفناء لأنها لا تتقدم، ولا تتطور، ولا تتغير لكن في الوقت نفسه، لا يمكن لهذا التقدم أن "يحدث في ظل الاستسلام لثقافة غربية تعتمد في انتشارها على إفقاد أصحاب الثقافة – التي تجري غزوها – ثقتهم بأية مزايا خاصة لهذه الثقافة بل وتعتمد على التحقير المستمر لها"[2]، لأن هؤلاء يعتبرون التمرد على الهوية، والثقافة الوطنية هي علامة تقدم، وتطور ورقي والخروج عن قواعد اللغة العربية القومية مفخرة كبيرة، لكن لا استحياء ليحظى، ويتمتع الغربي بالتبجيل لمجرد كونه أجنبيا.

لنستنتج إذن أن الانفتاح الكلي، أو المطلق يجعل الأمة تخسر الكثير من ثوابتها، وأصالتها وقيمها منه الهوية والتراث.

أما الانغلاق المتشدد، فيجعل الذات، متقوقعة على نفسها، فلا تتطور بل تبقى جامدة متحجرة، فهو يجعل الحياة في عصر ما على الكرة الأرضية منعزلة عن بعضها البعض.

كما أن الانغلاق والقطيعة تفقدان الاتفاق المرجو لتحقيق الوجود الاجتماعي والتطور معا، والانغلاق على الذات ناتج من مصادر عديدة لعلى أبرزها : هزائمنا العربية الدائمة، تجربتنا مع

([1]):محمد راتب الحلاق: نحن والآخر، مرجع سبق ذكره، ص 58.

([2]): المرجع نفسه،ص 59.

الاستعمار واحتلال فلسطين، أي هو نتيجة للخوف والرعب والهزيمة ليكون الانفتاح ضرورة حيوية يفرضها الواقع الاجتماعي الحتمي .

وفي الأخير يمكننا القول، أن لا إفراط ولا تفريط، فعلى العرب أن لا ينفتحوا كليا على الآخر الغربي فينسلخون عن شخصيتهم وهويتهم ولا ينغلقون كليا فيتقوقعون على ذاتهم، بل يأخذون كل ما ينفعهم.

يأخذ كل ما هو إيجابي مفيد يخدمه، ويخدم مصالحه مثل العلوم: (الفلسفة، الطب، الفلك، الهندسة...)، ويترك كل ما هو ضار وسلبي، ويهدد مصالحه، مثل: إتباع سياسة الإمبريالية، التي تهدف إلى سحق الهوية، والشخصية الوطنية المحلية، ثم إعادة تشكيلها وتركيبها في إطار شخصية، وهوية عالمية؛ أي انصهار وذوبان ما هو خاص في ما هو عام، وفي هذه الحالة يفقد المرء، أو الفرد مرجعيته ويتخلى عن انتمائه، وولائه فتصبح الأمة العربية، والشعوب الأخرى تدور في فلكها، دون علمها فما تشهده اليوم سوريا، العراق، ليبيا، مصر، تونس من أزمات، وانكسارات داخلية هي نتيجة لهذه السياسة الغربية/ الآخر الذي يسعى دائما إلى تشتيت وتمزيق، وضياع الأنا/ العربي وتحويله إلى كيان ضعيف لا حول ولا قوة له، غير متماسك قابل للهدم والسحق والمحو.

إذن فالانفتاح، هو سحق للحضارة وللثقافة وللمنافع وللمصالح العربية الإسلامية، هو ضرب للإسلام والمسلمين؛ لأنه تعامل مع الحركات الغربية الناقدة والمسيئة والمشوهة للإسلام.

سادسا– الشخصية الروائية:

تعتبر الشخصية أهم العناصر الأساسية لما تلعبه من دور رئيسي في إنتاج الأحداث بتفاعلها مع الواقع، وتصارعها بل هناك من النقاد من يذهب إلى القول بأن الرواية هي: "فن الشخصية "، ومن هنا تعددت الكتابات التنظيرية، والبحوث التطبيقية التي تناولتها والتي أدت بدورها إلى تعدد مفاهيمها.

وقد اختلفت نظريات النقاد حول فاعليتها في الكتابة الروائية، والقصصية حتى أن الدراسات الأدبية النقدية الحديثة لا تستطيع رغم آلياتها النقدية تجاهل دور الشخصية، وإغفال أهميتها، حتى وإن كان عن طريق تفسير مقولاتها وتصرفاتها، من أجل الوصول إلى مضمون فكري واجتماعي.

إذن فالشخصية عنصر محوري، يقوم عليه كل سرد، حيث لا يمكن أن تصور رواية دون، شخصيات كونها تعمل على تحريك الأحداث من فترة لأخرى.

" فعبد الملك مرتاض" في كتابه "نظرية الرواية" يرى أن للشخصية مفاهيم متعددة بتعدد وجهات، النظر واعتبرها علم معقد وشديد التركيب كما أنها تتعدد بتعدد الثقافات والحضارة والإيديولوجيا والمذهب..

والملاحظ أن كل روائي يتعدد في أشكال تقدمية لشخصيات الرواية لأنها تخضع لمنطق التحول الإبداعي من فترة لأخرى"[1].

([1]):محمد بوعزة : تحليل النص السردي، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط1،2012، ص40.

فمن الروائيين من يكثر، أو يسهب في وصف الشخصيات مع ذكر أهم تفاصلها بالتدفيق الممل، والبعض الآخر يعتمد على الاختصار والإيجاز .

كما أن الكاتب "يختار شخوصه من الحياة عادة الحياة الحاضرة، أو الماضية في التاريخ أو المستقبلية في الخيال كما هو الحال في الأحداث، وقد يعيد رسم الشخصية بإضافة صفات خيالية جديدة أو يكثف سلوكه ليظهر على حقيقة معينة، وهو إذ يقدم لشخصية يكون حريصا أن يعرضها واضحة الأبعاد" (1).

إن أهم ما يميز الرواية العربية، أو"الجزائرية خاصة"، هو توظيفها أو بالأحرى تركيزها على "المثقف الجزائري" بمختلف انتماءاته المهنية، والإيديولوجية ليكون الشخصية المركزية والمحورية داخل العمل السردي.

وتعود هذه الظاهرة – هيمنة المثقف الجزائري– كونه كان يحمل دوما فكرا حداثيا مغايرا ومختلفا ومتباين للسائد وقتها.

سابعا: صورة المثقف العربي

قبل الحديث عن المثقف العربي، ينبغي أولا تعريف الثقافة، لأنها مفهوما واسع، شامل، جامع، وقد اهتمت كل الشعوب والأمم بمحاولة فهم وتحديد ماهية هذا المصطلح بشكل دقيق.

---

(1):عبد القادر أبو شريفة : حسين لافي قزق: مدخل إلى تحليل النص الأدبي، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، الأردن، ط3، 2000، ص 133.

1-ماهية الثقافة:

إنّ لفظ ثقافة "كمرادف للفظ الإنجليزي "culture".... والثقافة في اللغة العربية من "ثقف" أي حذف وفهم وضبط ما يحويه وقام وكذلك تعني: فطن ذكي ثابت المعرفة بما يحتاج إليه وتعني: تهذيب وتشذيب وتسوية من بعد اعوجاج"(1).

لتكون الثقافة بهذا نابعة من الذات الإنسانية، تتفق مع ما يولد الإنسان عليه؛ أي الفطرة، وما يخالف هذه الفطرة يجب علينا تقويمه وتهذيبه، والثقافة في اللغة العربية تعني "البحث، والتنقيب، والظفر، بمعاني الحق والخير، والعدل، وكل القيم التي تصلح الوجود الإنساني ولا يدخل فيه تلك المعارف التي تفسد وجود الإنسان وبالتالي ليست أي قيم وإنما الفاضلة فقط"(2).

إذن كل ما هو مفيد مثالي، وفاضل من المعارف يدخل حيز الثقافة، يعني كل ما يحتاج إليه الإنسان ليتأقلم مع بيئته، وظروفه ومجتمعه.

لتأسس الثقافة على الذات، والفطرة، والقيم الإيجابية فإنها في الوقت ذاته تحترم خصوصيته ثقافات المجتمعات الأخرى، وقد أثبت الإسلام ذلك حين فتح المسلمون بلادا مختلفة فنشروا القيم الإسلامية المنسقة مع الفطرة الإسلامية واحترموا القيم الايجابية.

---

(1):غادة الطويل: الثقافة العربية جذور وتحديات، kb.com للنشر والتوزيع، الجزائر ، 2007، ص 13.

(2):المرجع نفسه، ص4.

فالعربي بما يمتلكه من موروث ثقافي، يعد وجها من أوجه التعبير عن الذات، في إطار جماعة بشرية تتفق، وتتقاسم نفس الأفكار، والعادات، والمعتقدات، ومن أبرز الذين اهتموا بلفظ "الثقافة" نجد "سلامة موسى"، الذي يرى أن الثقافة هي مجموعة من المعارف، والعلوم، والآداب والفنون يستعملها الناس ويتثقفون بها؛ وكل من يستخدمها ويستعملها استعمالا صحيحا سليما يطلق عليه لفظ "المثقف" .

2-ماهية المثقف :

إن التعريفات التي تطرقت إلى شخصية المثقف، لا يمكن حصرها في مائة تعريف لكنها تشترك، أو تخضع في مجملها إلى عدة معايير منها: معيار تعليمي، معيار سياسي، معيار اجتماعي، وظيفي، فهناك من يعرف المثقف بأنه "الحاصل على الشهادة العليا الجامعية، وهناك من يعرفه بأنه المتخصص في شؤون الثقافة والذي يتعامل مع الأفكار المجردة والتي يضع اعتباراتها فوق مختلف الاعتبارات الاجتماعية اليومية أو بأنه المفكر المرتبط بقضايا عامة أكبر من حدود تخصصه أو هو صاحب الرؤية النقدية للمجتمع"[1].

إذن فالمثقف هو المفكر الطموح هو العالم القلق في جميع الميادين والمجالات من آداب وفنون وعلوم، هو ممثل النخبة المتعلمة ذات فاعلية في مجتمع ما.

([1]):أمين الزاوي:صورة المثقف في الرواية المغاربية، دار النشر الراجعي ،الجزائر، ط2، 2009،ص26.

هناك من يرى من الفلاسفة أن كل إنسان موجود على وجه الأرض مثقف، وإن لم تكن الثقافة مهنة له أمثال: كروتشيه (Croce) وموسكا (moksa) وميشيل (Michel) وباريطو (bareto) .

وفي المقابل نجد الايطالي " انطونيو غرامشي" عارض بشكل قطعي، وواضح هذه الأطروحة ليضعنا بهذا، أمام نوعين من المثقفين" مثقف متخصص وآخر عام، أما المثقف المتخصص فهو الذي ينتمي إلى حقل إنتاج المعرفة التقنية والفنية بشكل مباشر فيدخل في هذا الإطار المفكرون والأدباء، والفنانون، الكتاب، والمبدعون، والعلماء، والأطباء والطلبة...، أما المثقف العام فهو الذي تربط مهنته الإنتاج اليدوي كالعمال والفلاحين"[(1)]؛ ليكون كل جهد سواء عضلي أو فكري ثقافة، لأن الجهد العضلي أيضا يدخل فيه قدر، ولو بسيط من التأهيل التقني؛ أي استخدام الفكر أو الذهن والعضلات معا.

فالمثقف الخاص ينتمي إلى الطبقة الأساسية التي تهيمن، وتسيطر على المجتمع وتعمل على تهميش المثقف العام؛ أي المثقف التقليدي أو الطبقة الذاهبة، إلى الزوال والانقراض ليقسم المثقفين وفق هذا إلى قسمين بارزين "ريفيين" "وحضر" .

فالصف الأول "مرتبط بواقع ريفي متخلف وتقليدي (artisanal)، والمتميز بالتقليدية والانتماء إلى الفكر الغيبي المنسجم مع البنية الريفية الفلاحية التقليدية"[(2)]، إذن فالريف يضم صنفا

([1]):أمين الزاوي: صورة المثقف في الرواية المغاربية، مرجع سبق ذكره ،ص 27.

([2]):المرجع نفسه،ص 29.

واحدا من المثقفين، وهم المثقفين التقليدين الريفيين الذين، ينتمون إلى واقع ريفي متخلف غبي بسيط، فيجعل هذا الواقع فكره ضيق جامد لكن في الوقت نفسه، هو المثقف الذي ينسجم مع مجتمعه، وبيئته، وظروفه، وسلطته، ويمثل هذا الصنف خير تمثيل "الفقيه والشاعر الشعبي ".

أما المثقف الحضري – الصف الثاني – نشأ في مدينة، ويملك ثقافة متنوعة ورؤية واسعة وثاقبة للأحداث، ويعمل على تغيير أوضاع مجتمعه، لا يحترم تقاليده بل يسعى إلى خلخلتها؛ أي يمارس المثقف الحضري كل ما يتعارض ويتناقض مع عادات وتقاليد المجتمع الذي ينتمي إليه، لكن هذين الصنفين إن نظرنا إلى واقعهما– خاصة المثقفين العرب – في المنفى فهما يعطيان صورة حقيقية وصادقة عن القمع الممارس ضدهم من قبل الاستعمار، بكل الأساليب الوحشية المعروفة لديه، مما أدى إلى نشوء تجمعات ثقافية كبيرة في المدن والأرياف التي استطاعت "أن تمارس تأثيرا كبيرا على جماهير الفلاحين"(1)

وخير مثال على هذا "المثقف الطرقي" الذي استطاع أن يحرض كل القوى الفلاحية وكل الطبقات (فقير، غني، متوسط) على الكولونيالي الفرنسي إذ يمكن "إعتبار الطرقية في فترة بداية الغزو أكثر المواقع الثقافية صلابة في المواجهة وربما تعد الوحيدة التي مثلت الرؤية والممارسة الدفاعية عن الذات... المهددة بترسانة الأسلحة الجديدة "(2)، إذ تتميز هذه الشخصية بتبنيها الأفكار التقليدية الجامدة وتحافظ عليها ويرفض كل الأفكار المستحدثة والدخيلة عليه فهي لا تقبل الإثارة الفكرية وتميل إلى استلام السلطة أو الإدارة.

---

(1):أمين الزاوي: صورة المثقف في الرواية المغاربية، مرجعسبق ذكره ،ص 38.

(2):المرجع نفسه، ص 39.

فهذا المثقف البسيط الذي ساد في تلك الفترة استطاع أن يحصن الذات / الأنا ويحافظ عليها من الانصهار والذوبان في الذات/ الآخر الغربي، وذلك بحفاظه على أهم مقوم يكون الهوية وهي "اللغة العربية" حيث حولت إلى آلة دفاعية لمواجهة الاستعمار، الذي يسعى أو يهدف إلى فتح مدارس تعليم اللغة الفرنسية،لكن اللغة العربية ظلت حاضرة بقوة في العلاقات الاجتماعية، وفي الزوايا، والكتاتيب القرآنية ظلت تحقق وجودها.

فالمثقف الجزائري في قطيعة معلنة مع الاستعمار، وفي بحث مستمر ودائم عن ذات متحضرة راقية في غمرة حصار الآخر/ الفرنسي، هذا لا يعني أنهم رفضوا اللغة الفرنسية بل أدركوها وجعلوها وسيلة لمخاطبة الآخر والدفاع عن حريات وحقوق الأنا، فدخلوا فيما يسمى بالحوار الإنساني رفقة الثقافة التحررية الفرنسية، فاستطاع هؤلاء بكل حججهم أن يكسبوا مجموعة كبيرة من المثقفين الفرنسيين في صف الثورة الجزائرية أمثال:" فرانز فانون"، "موريس أودان"، "لويس أراغون"، "جان فرانسيس" وسمي هؤلاء بأصدقاء الثورة الجزائرية.

كم أتمنى أن يمنحني الله قليلا
من العمر لأرى الأمير خارج
أسوار سجنه
"مونسينيور ديبوش"

السلام على من نحبه جميعا
كاب إلى صديقنا وحبيبنا قس
الجزائر العميق الذي في
القلوب والحرمان الكبير
والحاجة
"الأمير عبد القادر"

إن رواية "كتاب الأمير مسالك أبوب الحديد" للروائي "واسيني الأعرج"، هي أول عن الأمير عبد القادر الجزائري، تجسد وتصور لنا تارة أزمة الأنا العربية (المستعمر الجزائري) مع الآخر/ الغربي (المستعمر الفرنسي)، وتارة أخرى انفتاح الأنا العربية على ثقافة وحضارة وعقيدة وديانة وعلوم الآخر الغربي الفرنسي.

فالروائي استطاع من خلال هذه الرواية، أن يعيد بناء التاريخ الصامت والمسكوت عنه للرجل العظيم الفذ مؤسس الدولة الجزائرية "الأمير عبد القادر الجزائري.

كما جسد من خلالها آلام وآمال الأنا / الأمير والآخر/مونسينيور، فهذا العمل السردي يعيد سرد الحياة اليومية "للأمير"، أو المحطات الكبرى التي مر بها في حياته في بداية من بيعته تحت شجرة الدردار، محاربته وكفاحه للآخر الفرنسي، بناءه للدولة الجزائرية، وسعيه الدائم لإحداث تغيير في ذهنيات الأنا /الجزائرية التي كانت تحكمها العصبية القبلية والخرافة خاصة، استسلامه ثم نفيه إلى فرنسا وبالضبط في قصر "أمبواز"، تعرفه على القس الأول للجزائر، أو رئيس الكنيسة "أدولف أنطوان مونسينيور ديبوش" الذي يسعى جاهدا لإطلاق سراح الأمير من المنفى الفرنسي

وفي الوقت نفسه إنقاذ دولة عظيمة كفرنسا من تهمة عدم وفائها واحترامها للمعاهدات والاتفاقيات، وأخيرا نفيه إلى المشرق العربي.

فالروائي إذن يعيد ترتيب لقطات ومشاهد وحقائق تاريخية، لكن فيها بعض من التشويه والزيف وهذا يدخل في إطار ما يسمى "بجماليات النص الروائي".

كما يكشف لنا عن الحروب والمواجهات التي خاضها "الأمير" ضد الآخر/ الفرنسي المستعمر الغاشم الذي سلب ونهب أرض الأنا / الجزائر لمدة طويلة لأنه اعتبرها جزء، أو قطعة لا تتجزأ من فرنسا كما تبين لنا الرواية العلاقة المتوترة والمضطربة بين الجزائر والمغرب؛ أي بين "الأمير" عبد القادر والسلطان" مولاي عبد الرحمان"، كما توضح الخلاف والصراع الذي كان بينه وبين أتباعه وأنصاره الذين لم يدركوا بعد قوة وشراسة الآخر الغربي (العتاد الحربي الكبير الذي ليس له مثيل آنذاك) ويتجلى لنا هذا في قول الأمير:

"أقاتل ليس فقط الفرنسيين ولكني كنت أقاتل حالة العمى التي كانت تصيب بعض خلفائي" [(1)].

أي أن "الأمير" كان يكافح ويناضل جبهات عديدة: الآخر/ الفرنسي وشراستة وغدره من جهة والقبائل التي ارتدت لحكمه من جهة أخرى (الخائبة) التي انسلخت كليا عن مقوماتها ومبادئها وانصهرت في مبادئ ومقومات الآخر الغربي.

([1]): واسيني الأعرج: كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، دار الآداب للنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ط2، 2008، ص 128 .

صدرت رواية "كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد" سنة 2005 عن دار الآداب، بيروت عدد صفحاتها 554 صفحة، قسمت الرواية إلى أبواب وفرعت الأبواب إلى وقفات حيث جاءت كما يلي:

الباب الأول: عنون بباب المحن الأولى وتتفرع منه: الأميرالية الأولى وفيها خمسة وقفات وهي: مرايا الأوهام الضائعة، منزلة الابتلاء، الكبير مدارات اليقين، مسالك الخيبة، منزلة التدوين.

أما الباب الثاني: فعنون بباب أقواس الحكمة يتضمن: الأميرالية الثانية وفيها أربعة وقفات وهي: مواجع الشقيقين، مرايا المهاوي الكبرى، ضيف المعابر، انطفاء الرؤيا وضيق السبل كما عنون الباب الثالث: بباب المسالك والمهالك ويتضمن الأميرالية الثالثة وفيها ثلاث وقفات وهي: سلطان المجاهد، فتنة الأحوال الزائلة، قاب قوسين أو أدنى، الأميرالية الرابعة فكل هذه الأبواب والوقفات تروي سيرة الأمير عبد القادر الجزائري/ الأنا وسيرة القس مونسينيور ديبوش/ الآخر الغربي الإنساني، هما شخصيان إنسانيتان يتصارعان مع آلام ومأساة المنفى، أو بالأحرى السجن، فهما متشابهان إلى حد كبير حتى أورد الروائي وقفة "باسم مواجع الشقيقين" "فالأمير" و"مونسينيور" يمثلان الإنسانية والتسامح والحوار الحضاري وتبادل المشاريع بين الأنا والآخر على الرغم من وجود اختلاف كبير بينهما (اللغة والدين).

فالروائي عند وصفه وتقديمه لجميع الشخصيات التي تمثل الآخر/ الغربي بالنسبة للأنا العربية ابتعد كليا، أو نهائيا عن الذاتية العمياء معتمدا على الموضوعية، فأنصفهم وأعطى لهم

الحق في الإنسانية التي شوهت وخرجت بسبب دينهم ولغتهم وعرقهم وهويتهم وثقافتهم وانتماءاتهم...الخ ومثل ذلك تقديمه (لجون موبي) و(أوجين دوما) و(الكابتن بواسيني) و(دوميشال) و(القس مونسينيور ديبوش)، هذا الأخير الذي تربطه علاقة قوية ومتينة بالأنا / الأمير حيث كان دائما يتردد على قصر أمبواز لزياراته والاطمئنان عليه، وأيضا لطرح مجموعة من الأسئلة التاريخية التي لاتزال عالقة في ذهن هذا الأخير، فيتولى الأمير الإجابة عنها بكل شفافية ومصداقية لتمثل هذه الإجابات بعد ذلك المحور والعمود الفقري للرسالة، أو الكتاب الذي يعمل "مونسينيور" على إرساله إلى الرئيس الفرنسي "نابليون بونابرت" لأجل إنقاذ "الأمير" وإخراجه من المنفى والأسر؛ لأن أصعب الأشياء وأقساها في الدنيا هو سلب الحرية من طرف الآخر اللدود المتفوق على الأنا بالوسائل الحديثة، أو المتطورة (المدافع الحربية) فتشعر الأنا هنا بالعزلة واليأس والقنوط وتقاسى هموم البعاد والاشتياق والقصيدة التي نظمها الأمير "عذاب الأسر"خير دليل على هذا.

فالرواية تجيب عن المسكوت عنه في حياة "الأمير"، وفي كيفية بناء الدولة الجزائرية، فالأمير / الأنا صمد وحارب غطرسة الآخر / الفرنسي الذي كان أكبر قوة استعمارية آنذاك "فكان من الطبيعي أن تهوي إليه الأفئدة وأن يجلب حول شخصيته العسكرية والدينية والأدبية والنقاش والجدل وأن ينال عقب كل ذلك الإحترام والتقدير... فكتب عنه الأمريكيون والألمان"[(1)].

([1]): محمد بشر بويجرة: الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث، منشورات دار القدس العربي الجزائري، ط1، 2009، ص 253 .

القس الأول للجزائر "مونسينيور ديبوش" يقدم المساعدة للفقراء والمظلومين واليتامى والمقهورين، يقدم العون إلى الإنسانية جمعه، بغض النظر عن العرق والجنس والهوية والدين والحضارة التي ينتمي إليها المظلوم (وهذا ما فعله مع الأمير لما سجن)

فالآخر "مونسينيور" أحب بلد الأنا بكل جوارحه وتمنى أن يدفن في ترابها النقي والطاهر، وهذا ما حققه له صديقه الوفي "جون موبي" بعد وفاته بثمانية سنوات.

1- الأنا والآخر وجماليات العنوان:

العنوان هو العتبة التي يلج من خلالها القارئ إلى المتن الروائي ويكون له علاقة مباشرة بالمضمون، فهو الذي "يوجه قراءة الرواية ويغتني بدوره بمعان جديدة بمقدار ما تتوضح دلالات الرواية فيها المفتاح الذي تحل ألغاز الأحداث وإيقاع نسقها الدارمي وتوترها السردي.. العنوان عنصر من النص الكلي.... مرآة مصغرة لكل ذلك النسيج النصي"[1]

وإذا تأملنا عنوان روايتنا "كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد" نجده يتكون من عنوان رئيسي أساسي: "كتاب الأمير" وعنوان فرعي:"مسالك أبواب الحديد"، و يدلان منذ الوهلة الأولى، أن الرواية تروي وتسرد لنا سيرة المناضل والمكافح" الأمير عبد القادر الجزائري"، هو رمز ثوري راسخ في الذاكرة الجزائرية، رمز للمقاومة والصمود والكفاح في وجه الآخر/ العدو، استطاع أن يدون

([1]): رحماني علي: سيميائية العنوان في رواية محمد جبريل ، محاضرات الملتقى الدولي الخامس، السيمياء والنص الأدبي ، 15، 17 نوفمبر 2008، قسم الأدب العربي ، جامعة محمد خيضر ، بسكر ، دار الهدى للطباعة والنشر عين مليلة، الجزائر، 2008، ص 193 .

اسمه بحروف من ذهب في سجل التاريخ لما حققه من بطولات وانتصارات على الآخر/ الفرنسي

أما كلمة "الكتاب" توحي بجمع معلومات وأخبار حقيقية حول شخصية الأمير عبد القادر/ الأنا، هو كتاب الأنا الجزائرية في كفاحها ونضالها ومواجهتها وصراعها مع الآخر/ الغربي (المستعمر الفرنسي)، هذا الكتاب ألفه الآخر مونسينيور تحت عنوان "عبد القادر في أمبواز" ليرسله إلى رئيس الجمهورية الفرنسية "لويس نابليون بونابرت" ليتم إطلاق سراح "الأمير من السجن أو المنفى.

أما "مسالك أبواب الحديد" فهي عبارة توحي لنا بالمنفى والسجن الذي وضعت فيه الأنا / الأمير وحاشيته من طرف الآخر الفرنسي المستعمر، فكلمة " الحديد" توحي بنا بالقوة والصلابة والمتانة أما "الأبواب" فتمثل الخلاص والنجاة والحرية من القيد بالنسبة للأنا / الأمير

فالأنا وضعت في السجن أو المنفى، فأصبحت تعاني العزلة والعذاب والظلم فجميع الأبواب والمسالك والمنافذ والطرقات مغلقة ومسدودة أمامها؛ حتى لا تفر أو تهرب وتذوق العذاب المرير من طرف الآخر/ الفرنسي، فالسجن أقسى المحن وأصعبها على النفس، والأمير تعرض لهذا الأخير، لأن الآخر اللدود تغلب وتفوق عليه بعتاده الحربي المتطور، ويبرز لنا هذا واضحا في المقطع الروائي الذي جاء على لسان الأمير محاورا مونسينيور: "الموت حق وواجب يا مونسينيور وأنا في هذا المكان أعتبر نفسي ميتا أو في طريق إلى ذلك"[(1)].

([1]): واسيني الأعرج:كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد ،مصدر سبق ذكره، ص 203.

ويمكننا أيضا أن نعتبر "مسالك أبواب الحديد" هي الطرقات والدروب الوعرة الموجودة في الجبال التي أراد "الأمير" عبورها لإنقاذ الزمالة، أو الدولة من الهلاك والخراب الذي ألحقه بها الآخر/ المستعمر الفرنسي في أحد معاركه ويبرز هذا في قول الشاب الذي أراد قتل الأمير:" دعني أساعدك فأنا أعرف كل المسالك في المنطقة" (1)

2- رؤى الأنا العربية ورؤية الأخر الغربية من خلال كتاب الأمير:

إن رؤى الأنا الجزائرية اتجاه الأخر الفرنسي انبتت وفق رؤيتين في رواية "كتاب الأمير" وهي:

- **الرؤية أو النوع الأول:** هي علاقة الحب والصداقة والعطف والحنان بين الأنا والآخر؛ أي بين "الأمير" و"مونسينيور"و الكابتن بواسيني" و"أوجين دوما"....

-**الرؤية أو النوع الثاني:** هي علاقة الصراع والصدام والمواجهة والمقاومة بين الأنا والآخر؛ أي بين الأمير والاحتلال الفرنسي.

فالنوع الأول يحمل في طياته، أو يتضمن: الرؤية الحضارية والرؤية السياسية والحقوقية والرؤية الإعجابية.

أما النوع الثاني فيتضمن، الرؤية العدوانية التي ترى الآخر مخالفا ومقابلا، لأنه يحاول إقصاءها وتهميشها ومحوها فهو بالنسبة لها همجي ووحشي مدمر، مستعمر لا إنساني .

فرواية "الأمير مسالك أبواب الحديد" صورت لنا مرة التنافر والصراع، ومرة الحب والتعايش بين الأنا الجزائري والآخر الفرنسي

---

(1): المصدر السابق، ص428 .

أ – الرؤية أو النوع الأول:

أولا لابد أن نقرأ أن علاقة الحب والصداقة القوية، هي المهيمنة والمسيطرة على "رواية الأمير" رغم أنها تصور جدلية الأنا والآخر؛ لأن معظم الآراء والأفكار التي وردت على ألسنة الشخصيات التي وظفها الروائي مؤيدة لحضارة الآخر/ الغربي لأنها تحاول إعادة بناء الذات بعد وعيها وإدراكها أن زمن الخرافات والبطولات العنترية والقصائد قد ولى ولم تعد نافعة في زمن غمره وملأه التطور والتقدم.

ففي كل مرة يشيد الروائي وينوه في روايته بكل ما يصنعه الآخر الغربي / الفرنسي وينتقد كل ما يصدر عن الأنا الجزائرية؛ فالرواية جسدت وصورت لنا محو الأنا والآخر لكل الحدود الفاصلة بينهما، الدين، اللغة، العقيدة، الحضارة، فراح كل منهما يتبادل المعارف والخبرات والعلوم مع غيره، فأخذوا خيره وتجنبوا شره ليكون بهذا الحوار هو الوسيلة الوحيد لبث الطمأنينة والراحة النفسية بين الطرفين، فبرزت علاقة الحب القوي في الرواية بين الأنا /الأمير والآخر/ الفرنسي مونسينيور الذي يسعى جاهدا لإطلاق سراحه من المنفى، أو السجن.

وهذا ما جاء على لسانه عند محادثته "للأمير طويلا في قصر أمبواز (المنفى الفرنسي):

"لا أدري من أين جاءني كل هذا ولكني أحبك أكثر مما يمكنك أن تصور، لك في قلبي مكان واسع وفي ديني متسع لا يفي ولا يموت روحك أنت غالية علي ومستعد أن أمنحك دمي، أمنحني من الوقت قليلا لأتعرف على دينك وإذا اقتنعت به سرت نحوه"[1].

([1]): المصدر السابق، ص 65 .

وفي قوله أيضا للمرأة التي جاءت تطلب مساعدته، لإطلاق سراحه زوجها من سجن "الأمير عبد القادر"، وهي التي كانت سببا ووسيلة أولى لتعرف "مونسينيور" على" الأمير"، حيث تم تبادل الأسرى فيما بينهما بطريقة سلمية "ما سمعته عن الأمير يؤهله لرتبة قائد وليس حرامي ولا أعتقد أنه سيقتل زوجك مادام سجينا لديه الذين هربوا أو الذين أطلقوا سراحهم يؤكدون على أخلاقه العسكرية" (1).

"فمونسينيور" معجب ومنبهر بأخلاق وشجاعة وبسالة "الأمير"، فهو مقرب منه يتردد دائما لزيارته في المنفى ليخفف عليه حزنه وآلامه وعزلته ومأساته، فعندما يكون بجانبه يحس أنه أسعد مخلوق على الوجه الأرض، فقد كان يخشى أن يموت قبل أن يفي بوعده إلى الأمير (إطلاق سراحه من المنفى)، ويظهر هذا في قوله جون موبي:

"ليس الموت برصاصة طائشة هو الذي يخيف ولكن الموت قبل الانتهاء من تحقيق ما نصبوا إليه من خير للناس كم أتمنى أن يمنحي الله قليلا من العمر لأرى الأمير خارج أسوار سجنه"(2).

فالآخر الفرنسي" مونسينيور" رغم اختلاف دينه ولغته وثقافته عن ديانة ولغة الأنا إلا أنه أراد لها الخير والحرية والخلاص من السجن، فهو لم يطمئن على قضية الأنا / الأمير إلا عندما فتح ملفه في غرفة المنتخبين، وهناك وجد من أيده ومن عارضه.

فالقس "مونسينيور" دافع عن الأمير وأحبه كأخ وأب له، فأحب أرضه "الجزائر" وتمنى أن يموت فيها لينعم بالراحة الأبدية؛ وقد جاء هذا واضحا على لسان الراوي"جون موبيي قوله:" ارتبط

---

(1): المصدر نفسه ، ص12 .

(2): المصدر نفسه ، ص14 .

بهذه الأرض فدافع عنها باستماتة ودافع عن رجلها الكبير الأمير مثل الذي يدافع عن كتاب مقدس استمات في الدفاع عنه حتى جعل حياته كلها رهن إطلاق سراحه البارحة قضيت الليلة بكاملها أفلي كلماته الأخيرة.... لأفهم عميقا سر هذا الحب"(1)، "فمونسينيور" قضى عمره وحياته وراحته في البحث عن الحقيقة الغامضة؛ أي يوم الذي استسلم فيه "الأمير" وأمضى على اتفاقية ومعاهدة تحفظه وتحفظ حاشيته، لكن دولة فرنسا خرقت هذه الاتفاقية ولم تحترمها وعاملت "الأمير" كسجين. وأراد أيضا من خلال ركضه أن يحسن صورة فرنسا للعالم، أيعقل دولة عظيمة كفرنسا لا تفي بوعودها؟.

فمونسينيور / الآخر في كل مرة كان يلح ويصر على إخراج الأنا من المنفى، أو السجن بكل الطرق والوسائل، ولعل أول وسيلة هي إدراج ملفه في مجلس المنتخبين، لكن بعد فشل الطريقة قرر كتابة رسالة إلى رئيس فرنسا " نابليون بونابرت" ليشرح فيها كيفية استسلام "الأمير" وخرق الدوق دومال لهذه الإتفاقية، والمعاناة والعزلة والحزن واليأس الذي يكابده "الأمير" في قصر أمبواز.

وما يؤكد لنا هذا هو قول" جون موبي" عند سرده سيرة "مونسينيور" للصياد المالطي:

"بعد محاولات مضنيه استطاع مونسينيور وبمساعدة لامويسيير وبعض النواب أن يقتنع المجلس بفتح ملف سلطان الجزائري"(2).

وفي قول" مونسينيور" أيضا:

---

(1): المصدر السابق، ص25.

(2): المصدر السابق، ص27.

"أملي أن يجد الأمير طريقا للحرية لن أغادر المكان إلا بعد الإنتهاء من إنجاز هذه الرسالة ودفعها إلى الرئيس"(1) .

فالآخر تأثر بحالة الأنا / الأمير في المنفى لأنه يعيش في قهر وعزلة ويأس وقنوط فالمكان بالنسبة له قبر مظلم، ويظهر هذا من كلام العامل في "قصر هنري الرابع"مع "الأمير": "تلقينا أمرا من وزارة الحربية بغلق النوافذ حتى لا يهرب الأمير وأتباعه... ولكن هل هناك من يستطيع الهرب من هذا القبر"(2).

فالوضع الذي عايشه الأمير أدى "بمونسينيور"، إلى كره باريس والباريسيين لأنهم يتلاعبون بحياة وبمصائر وحريات الناس، حيث لا يهمهم سوى مصالحهم؛ ويتجسد لنا هذا في قول "مونسينيور" لمرافقه "جون موبي":

" أتعب من هؤلاء الباريسيين كيف يتحملون هذه المدينة المتعبة ضخامتها تخيفني ناسها ينفلتون من كل منطق وينقلبون بسرعة من الصعب أن تثق في مزاج الباريسيين" (3).

فالروائي صور وجسد لنا من خلال روايته الأنا والآخر (الأمير، مونسينيور ديبوش). كرجلان، حضاريان إنسانيان يمثلان قمة التسامح والحوار الحضاري فهما يكنان المحبة والمودة لبعضهما البعض، إذن فالشعور، أو الإحساس متبادل بينهما.

(1): المصدر نفسه ، ص12 .

(2): المصدر نفسه ، ص526.

(3): المصدر السابق، ص31 .

"فمونسينيور ديبوش" والأمير" شخصيتان متشابهان عايشها المنفى وآلامه وعزلته وحزنه، إظطرا للخروج من الأرض التي أحبها عنوة (الجزائر)، تعرضا للخيانة من طرف أقرب الأحباء والأصدقاء وما يؤكد قولنا هو كلام "جون موبي" عنهما: "كليهما يخدم الناس والله بطريقة... وربما بنفس الحماس والعزيمة"[1]

"فمونسينيور ديبوش" أحب أرض الأنا / الجزائر بكل جوارحه، وكان يتمنى أن يموت فيها، لأنها أرض طاهرة، نقية صافية، كرس نفسه لخدمة الإنسانية على هذه الأرض، حيث كان يقدم المساعدة للفقراء واليتامى والمحتاجين، فكثرت الديون عليه وهذا ما أدى به القرار والهروب كأي سارق نحو "طوران"؛ فقد جاء على لسان الأمير ما يأتي:

"واجبك الكبير هو الذي دفعك إلى تحمل هذه الديون على ظهرك لقد بنيت وأنقذت اليتامى ولم تسأل يوما لا عن لونهم ولا عن جنسيتهم ولا عن قناعاتهم"[2].

فهذه المسؤولية، أو الثقل الذي حمله الآخر/ مونسينيور جعله يغرق في الديون، فلم يستطع تسديدها في الوقت المحدد له ،فاضطر إلى أن يفر ويهرب من الأرض التي أحبها وسهر على أن يعمها الخير في قول الأمير:

"لم آخذ من تلك لأرض الطيبة إلا المحبة والآلام، ومثلك خرجت منها كأي سارق"[3].

([1]): المصدر نفسه، ص489 .

([2]): المصدر نفسه، ص418.

([3]): المصدر السابق ، ص 256 .

فمونسينيور / الأخر الفرنسي قام بأعمال جبارة بالجزائر / بلد الأنا، حيث أرجع رفاة القديس أوغسطين إليها، بنى مدارس لإعادة تأهيل البنات التائبات وحمايتهن وشيد دار لليتامى في وهران والجزائر، لم يبقى مكان إلا زاره وخفف فيه من آلام الناس، لهذا كان حزنه وجرحه كبيرا عند مغادرته لها، وهذا ما جاء على لسانه يحدث الأمير:

"لكن المنفى قاس، مثلك لم أشته مغادرة تلك الأرض الظروف القاسية التي دفعتني أمنيتني أن أعود لها لأموت هناك فقط شيء منها صار في دمي"(1).

"فمونسينيور" يقدم المساعدة للآخرين بغض النظر عن دينهم ولغتهم وثقافتهم وقد أشار الراوي "جوبي موبي" عن هذا قائلا:

"مونسينيور ركض طولا وعرضا ليعطي الأمير وحاشيته مكانا يصلون فيه ويقومون آذانهم في قصر أمبواز"(2) .

كما حضيت الأنا العربية/ الأمير في المنفى الفرنسي بالحب والتقدير والاحترام من طرف الفرنسيين؛ أمثال "أوجين دوما" و"الكابتن بواسيني" اللذين كانا مرافقين للأنا دائما ومخففين لجراحها وآلامهما وأحزانهما فأصبحت الأنا لا تطيق فراقهما لأنها تعودت عليها؛ ويتجسد لنا هذا في قول الأمير عند مغادرته "قصر هنري الرابع":

"يؤذيني ذهابك أكثر من تغييري المكان أتمنى فقط أن لا تنقطع زياراتك... أنت تشفي الروح بكلامك الطيب وحنانك الكبير وما بيننا كبير" (1).

---

(1): المصدر نفسه، ص419.

(2): المصدر نفسه، ص489 .

كما كان "الكابتن بواسيني" أيضا يحضى بمكانة عالية في قلب "الأمير" فهو مرافقه في المنفى، ومخفف آلامه حيث أصبح يمثل للأنا / الأمير عائلته، فكانت كل محادثاته مع الأمير تطبع بالطيبة والود المحبة والاحترام والتقدير.

كان في كل مرة يطلعه على ثقافة الغرب ويبقى متعطشا لمعرفة المزيد عن ثقافة العرب ويبرز لنا هذا من خلال قول الراوي :"عندما دخل عليه بواسيني كان مرهقا جلس قليلا وعرف أن الأمير في غير وضعه المعتاد للحديث عن الثقافة والفكر والعقل والأدب"[2]؛ فالعلاقة كانت قوية ومتينة بينهما وهذا ما يظهره المقطع الآتي:

"بواسني حبيبيي لا توجد دوافع بل تصورات وأفكاره مغلوطة عني"[3] .

وما نلاحظه في جل مقاطع الرواية أن الروائي وظف الشخصيات الغربية بأنها ذات أخلاق عسكرية عالية في حين العربي جرده من هذا.

كما أن الآخر اعترف بحنكة وشجاعته الأنا / الأمير في ساحة المعركة وهذا ما ورد في معظم الجرائد من بينها جريدة "لامونتير" فزاد هذا من شوق ولهفة الفرنسيين لمعرفته، أو لمعرفة المزيد عنه، وهذا ما اعترف به لبرانس "دولاموسكوفا" في قوله:

"الأمير قطع بكل شجاعة مسالك الطويلة ... حنكة عسكرية عالية تستحق كل التقدير والاحترام"[4]

([1]): المصدر السابق، ص533 .

([2]): المصدر نفسه ، ص532 .

([3]): المصدر نفسه ، ص533.

([4]): المصدر السابق، ص21 .

"فالأمير عبد القادر" هو سلطان وقائد ناضل من أجل بلده وأرضه ودينه، تميز هو الآخر بأخلاق عسكرية عالية حتى أصبح مصدرا للإعجاب من طرف الكثيرين .

قاتل بكل شجاعة وبسالة لإعلاء كلمة الحق لكن الكثيرين من أتباعه ارتدوا واتبعوا الآخر / الفرنسي بسبب الجوع والفقر الذي هيمن على الأنا / الجزائرية آنذاك.

إذن فشجاعة الأمير اعترف بها غيره؛ ويبرز لنا أيضا هذا في المقطع الروائي الآتي الذي جاء على لسان "لبرانس دولاموسكافا" :

"من يستطيع أن ينكر على عبد القادر أنه قاوم من أجل وطنه ودينه ويستحق التقدير من جيشنا ... فقد بادل الجنرال الفرنسي سيفه بسيف الأمير"(1)؛ فهذا يعني أن الآخر/الفرنسي لا يستصغر عدوه، أو الأنا/الأمير.

فالأمير عبد القادر أحب" مونسينيور"، لأنه وقف بجانبه في أصعب المحن وأقسامها (السجن) ويتجلى لنا هذا من خلال المقطع الآتي الذي جاء على لسان الأمير عند زيارة القس له: "أهلا با أخي العزيز أهلا بالمرابط الكبير، لي كل هذه المعزة أيها السلطان الكريم في قلوبكم"(2)

"مونسينيور" كان مدافعا للأمير مخففا لآلامه فحضي بمكانة عالية في قلبه وهذا ما جاء على لسان الراوي جون موبي:

"ركض نحوه كالطفل وترك نفسه تتهاوى بين ذراعيه.... مونسينيور هل تعلم معزتك؟ غيبة طويلة كيف أسعفك قلبك كل هذا الزمن"(1) .

---

(1): المصدر نفسه ، ص28.

(2): المصدر السابق، ص497.

ليبدوا لنا أن الأنا / الأمير والآخر / الفرنسي وجهان لعملة واحدة، فكليهما انسلخ عن مبادئه ومقوماته وانصهر في ذات الآخر، فالكابتن بواسيني / الآخر لدرجة وفاءه وحبه للأمير / الأنا قرر أن يرحل معه إلى "بروسة"؛ أي أنه فضل بلد الآخر بالنسبة إليه / المسلم على أن يبقى في بلده دون رؤية "الأمير" ومصاحبته، "فبواسيني" يرى في "الأمير" المثل الأعلى الذي يجب الإقتداء به والسير على خطاه حيث يقول:

"يوم صممت على مرافقتك أنا وعائلتي لم يكن في ذهني إلا شيء واحد وهو أن أبقى وفيا لمثل أعلى في الحياة أنتم تمثلونه أحسن تمثيل"(2).

فالحدود انصهرت وذابت بين الأنا والآخر وأخذ كل واحد منهما ينهل ويغترف من علوم وثقافة و حضارة الآخر.

فالأمير مكث في بلاد الآخر/ فرنسا وبالضبط قصر أمبواز (المنفى) فعرف هناك أناس أحبوه وساندوا قضيته وخففوا من عزلته وآلامه ومأساته، حيث كان كل يوم يتردد عليه زائرا ما يسأل عن حاله ويطرح بعض الأسئلة عن ديانة وثقافة وحضارة العرب، فيقوم الأمير بدوره بالإجابة عنها.

مكث الأمير خمس سنوات بالمنفى، أحب أناس كثيرين فحين أطلق سراحه الرئيس "لويس نابليون" لم يستطع المغادرة وترك كل الأحباب وراءه؛ ويبدوا هذا جلي في قوله:

---

(1): المصدر نفسه، ص554.

(2): المصدر نفسه ، ص603.

"أنا أشعر بحزن عميق وبصعوبة كبيرة في ترك المكان لي أحباب هنا خبراتهم وخبروني في أرض المعركة وعرفت الشجاع والمقاوم والصبور... إني كلما لامست وجه أحدهم أو يده قاومت البكاء والانهيار صعب أن ترحل بدون الذين تحبهم".

وفي قوله "لمونسينيور" :"لقد تعودنا عليك ومن الصعب جدا أن نتركك .... تذكر دائما لك أصدقاء في أرض الإسلام يحبونك ويدافعون عن مثلك باستماتة سأسافر ولكني سأنقل معي آلام فقدانك وتركك ورائي"(1)؛ فالأمير لن يستطيع نسيان الليالي والأيام و الأشهر والسنوات التي قضاها مع "مونسينيور"، فلما أراد مغادرة فرنسا قدم برنسه كعربون محبة وصداقة لمونسينيور الذي لم يطق الابتعاد عنه في قول الراوي:

"عانقه طويلا ولم يستطع الرجلان أن يكفكفا الدمعات التي سالت غزيرة... توقف بواسيني عن الترجمة ... لأن اللغة لم تعد عائقا بين الرجلين فقد كانا يتواصلان بدونه لاشيء بينهما إلا لغة القلب التي لم تكن غريبة على أي منهما"(2).

فالأمير / الأنا يمثل الحوار الحضاري كان متفتحا على حضارة الغرب فتشبع بثقافتها وحضارتها، لم يتعصب دينيا بل كان في كل مرة يشرح تعاليم الدين الإسلامي للآخر / الفرنسي ويحاول إقناعه به.

فتحول "مونسيور" بالنسبة للأمير في المنفى، عائلة دافئة تبعث بحنانها وعطفها ودفئها ونورها فتضيء القصر، أو القبر المحتوم، كان عندما يراه "يترك كل شيء ويفتح ذراعيه وهو

---

(1): المصدر السابق، ص608.

(2): المصدر السابق، ص603.

يكرر جملته المعتادة زارتنا البركة، مرحبا مونسيور مرحبا" [1]؛ فهو سعيد دائما بجانبه (الأمير)، لأن الصداقة والمحبة التي جمعتهما كبيرة واستمرت إلى أن انتقل "مونسينيور" إلى السموات بعد رحيل الأمير من المنفى مباشرة.

فالأمير كان يحزن حتى لموت أعدائه وهذا ما حدث عند وفاة الجنرال "بيجو" بداء الكوليرا في قول الراوي:

"حزن الأمير سيكون كبيرا ومفجعا فقد خسر في شخصية بيجو خصما عنيدا وصديقا تقاسم معه سعير الحرب لقد أمضى الليلة بكاملها منكسرا "[2].

إذن فالأنا / الأمير كان منفتحا على الآخر وعلى كل علومه حيث كان يستفيد من خبراتهم ومعارفهم، ويرغب دائما في قراءة كتبهم لمعرفة أسباب تطورهم وتقدمهم على العرب.

ويتجسد لنا هذا في قول الأمير:

" لقد ساعدني بواسيني في الإطلاع على ثقافتكم وعلومكم وأصبحت قريبا منكم لقد كان أستاذي الفاضل وتحمل ثقل طالب مسن ومشى معه خطوة خطوة"[3].

فالأمير لم يقص غيره بل استفاد من علومه وتقرب منه لكي يفهم الأرض والعالم أكثر فأكثر، كما أنه صرح بتفوق وتقدم الغربي الفرنسي على الأنا/ الجزائري.

([1]): المصدر نفسه، ص200.

([2]): المصدر نفسه، ص545.

([3]): المصدر السابق، ص556.

فالأنا/ ضعيفة وغير قادرة على مواجهة الآخر والصمود في وجه آلات ووسائل جبارة وضخمة استطاع الآخر / الفرنسي أن ينجزها بكل ذكاء (المدافع الحربية).

ويظهر هذا في قول "الأمير" "لبواسيني":

" وجودك أعطاني رغبة كبيرة... في التعلم كنت أعرف قليلا من الفلسفة اليونانية ، سقراط، أفلاطون، وأرسطو خصوصا... ولكن اكتشافي لديكارت قربني من هذه الأرض"[1].

فهدف الأنا/ الأمير هو الإطلاع على علوم الآخر لإعادة بناء الدولة على أسس صحيحة وقوية لا تتزعزع، فاستشار الكثير من الفرنسيين واليهود بغية القيام بهذا، فاشتغلوا في مختلف مصانع البلاد؛ الصغيرة والكبيرة، ويبرز هذا في المقطع الآتي الذي جاء على لسان الأمير:

"دعونا الكثير من الأوربيين للمجيء لاستقرار والعمل في بلادنا وسمحنا لهم حتى بالتملك نريد أن نستفيد منهم ومن خبرتهم وأن نبني هذه البلاد على أسس صحيحة وقارة نطمح من هذه الحضارة أن توقظ هذا الشعب النائم على الكذب"[2].

كما أعجب الأمير أيضا بالجيش الفرنسي القوي الذي استطاع أن يهزم جيشه في جبال "أمسيراد"، وأدى به هذا إلى الاستسلام فتمنى أن يستفيد من نظامهم العسكري حيث جاء في قوله:

"نتمنى أن نستفيد من خبرة الفرنسيين لخلق جيش نظامي عتيد"[3].

([1]): المصدر نفسه، ص557.

([2]): المصدر السابق ، ص263.

([3]): المصدر نفسه، ص264.

فالأمير خاض حروبا كثيرة ضد الآخر/ الفرنسي وأتباعه أمثال : ملك المغرب، "محمد التيجاني"، "مصطفى بن إسماعيل" وغيرهم فاستشار الأوروبيين الذين يتعاونون معه لأجل التغلب عليهم ؛فمستشاره "ليون روش" الفرنسي كان يساعده على اتخاذ القرار، وهذا ما حدث في الحرب التي خاضها "الأمير" ضد "محمد التيجاني" في مدينة "عين ماضي"، حيث جاء على لسان مستشاره: "يا سيدي السلطان أرى أن هذه الوقاحة ويجب أن يعاقب عليها لا يمكن أن نتحدث مع سلطان كبير بهذه اللغة" (1).

كما اطلع أيضا الأمير على "الإنجيل"، لكنه لم يرتد عن الدين الإسلامي لأن إيمانه به قوي ولا يستطيع أيا كان أن يزعزعه أو يحركه، قرأه أو اطلع عليه ليتجنب شرهم فقط لا أكثر ولا أقل.

وهذا ما قال به "الأمير" للقس" مونسيور"

كما قرأ الأمير كل القصص الفرنسية القديمة وكتب التاريخ، رغبة منه معرفة تاريخها الزاهر والمتطور والراقي مقارنة مع الأمم الأخرى، وهذا ما تجسد لنا في الرواية عندما قبل الأمير/ الأنا هدية الآخر / الفرنسي "أوجين دوسفيري"؛ هي عبارة عن كتاب يتحدث عن الجيش الفرنسي وانتصاراته وبطولاته في المعارك ضد العدو.

---

(1): المصدر نفسه، ص545.

وقد جاء على لسان الأمير ما يأتي: "كنت أظن أنني لا أستحق منكم كل هذا التكريم أنا الذي كنت ولمدة طويلا خصما عنيدا لجيوشكم وقادتكم أقبل بهذه الهدية، لأن الإعجاب الذي أشعر به اليوم والصداقة الكبيرة منحاني فرصة كبير، اكتشاف عن قرب تاريخها الزاهر"[1].

كما أن الأنا الجزائرية / الأمير اعترفت بتفوق وتغلب الآخر الغربي/ الفرنسي المستعمر عليها، مما يصعب مقاومته ومواجهته ،ويبرز لنا هذا في المقاطع الروائية الآتية التي جاءت على لسان "الأمير" فيقول:

"الزمن القادم سيكون عنيفا وقاسيا.... الشقة بيننا وبينهم صارت هوة لقد طاروا وانكسرت أجنحتها الصغيرة"[2]

"مازلنا نتحرك وكأن هذه الحرب البائسة تبدأ الآن أمام عدو ساذج سنظل نقوم بالغازات....نحن لا نعرف ما نفعله في الكثير من الحالات مثل كل اليائسين"[3].

"لقد قاومت جيوشهم في أرض إفريقيا وأعرفهم جيدا، الجيش الفرنسي قوي ولا يمكن أن يكسر بسهولة "[4] .

"الكلام لم يعد نافعا وكافيا كنا نظن أننا الأفضل في كل شيء وبدأنا ندرك أن الآخرين صنعوا، أنفسهم من ضجيجنا الفارغ"[5].

([1]): المصدر السابق، ص600 .

([2]): المصدر نفسه، ص517.

([3]): المصدر نفسه، ص349.

([4]): المصدر السابق، ص386.

([5]): المصدر نفسه، ص638.

"كل ضرباتنا غير مفيدة وآلتنا ليست ذات قيمة .... نحتاج إلى مدافع من عيار أقوى كتلك التي يمتلكها الفرنسيون"[1].

كما تدل جل هذه المقاطع الروائية في الوقت نفسه؛ على إعجاب وانبهار الأنا العربية / الأمير بالآخر الفرنسي / المستعمر، وبما حققه ووصل إليه من تفوق وازدهار ورقي في مختلف المجالات والميادين عسكريا وسياسيا، اقتصاديا، ثقافيا، حضاريا،... لهذا فهو جدير بأن تنبهر وتعجب به بل ويستحق منها كل التقدير والاحترام.

فالأنا العربية عامة تنظر إلى نفسها بنظرة احتقار، وتدن، واستهزاء، وبنظرة إعجاب وتفوق للآخر الفرنسي، أي أنها تنظر إلى نفسها بنظرة سلبية وإلى غيرها / الفرنسي بنظرة إيجابية.

فتصبح الأنا تعاني هاجسا مريرا يرافقها دوما، هو التفوق الغربي والعجز العربي، فتحبط لديها كل محاولات التفكير في التفوق والتغلب عليه وتعطل جميع فعاليات المقاومة والمواجهة.

قد تنفتح على كل ما جاء به فتنادي بالتبعية، فتنصهر، وتذوب في ثقافته وحضارته، وتنسلخ عن هويتها العربية الإسلامي.

وقد تبحث عن أسباب تفوق، وتقدم الآخر" الفرنسي" وتخلف وضعف الأنا "الجزائري"... لتصل إلى أن الآخر يمتلك منطلقات عظيمة وجبارة؛ وفي المقابل يفتقدها الجزائري خاصة، والعربي عامة، مما أدى به على الاستسلام.

والمقاطع الروائية الآتية التي جاءت على لسان الأمير تبين ما ذهبت إليه:

([1]): المصدر نفسه، ص259.

يقول: "نحتاج إلى زمن طويل لكي ننسى، ولكي تلتئم جراحنا نحن، ولكي نصدق ما حدث، ما جدوى الدم الذي ضاع والأحباب الذين لم يعودون اليوم"[1].

وقوله كذلك:

"ماذا تستطيع القبائل أن تفعل أمام جيش قوي لا يتردد أبدا في استعمال كل وسائله لتدميرها"[2].

ويقول ابن دوران اليهودي لجيش الأمير: "أنتم مخطئون فرنسا دولة قوية، أنتم تعرفون أن جيشها نظامي ومنضبط جدا يملك وسائل تدميرية كبيرة"[3].

وفي قول الأمير: كنا نظن أننا سنأكلهم في ساعة وأنهم جبناء وأجسادهم النسائية الرخوة لن تصمد أمام سيوفنا لكن كل يوم يؤكد لي... كنا نتغنى بمجد لم يعد له أي وجود"[4].

فالمقطع الروائي الأخير يؤكد، ويبين لنا أن الأنا "الأمير" له ثقة عالية بذاته، إلى حد الغرور ويعتقد كذلك أنه يمتلك الحقيقة المطلقة، لكن سرعان ما يدرك أن الزمن قد تغير وهذه الحقائق واليقينيات لم تعد صالحة ونافعة لزمن كهذا في قول الأمير:"الثقة العالية بالنفس هي التي هزمتنا وهي التي علمتنا عدم استصغار الأعداء"[5].

ولعل السبب الأول الذي أدى إلى تخلف الأنا من جهة نظر الروائي؛ هو الذهنية ،أو العقلية العربية وإيمانها بالخرافات والأساطير والأحلام التي يراها كبار قبائلهم (كحلم سيدي

([1]): المصدر السابق، ص407.

([2]): المصدر نفسه، ص461.

([3]): المصدر نفسه، ص294.

([4]): المصدر نفسه، ص520.

([5]): المصدر السابق، ص386.

الأعرج)، فهذه العقلية أو الذهنية سعى الأمير جاهدا إلى تغييرها لكنه لم يستطع، فأفشلت له مشروعه أبناء دولة حديثه متطورة وأدى به هذا إلى الاستسلام.

ففي الرواية بعض المقاطع التي تبين سذاجة التفكير الجزائري، وتؤكد الإيمان ببعض المسلمات الخاطئة التي ورثتها الأنا عن الأجداد والآباء من بينها: المقطع الآتي الذي جاء على لسان" لاموريسيير" وهو يسخر من الذهنية الجزائرية المتخلفة البدائية والبسيطة يقول:

- "يظنونه من سلالة الرسول وأن القوى التي تساعد قوى خارقة وينسجون قصصا عجيبة حول انتصاراته... الكثير من الناس قالوا إنهم رأوه يجابه الغزاة بصدر عار والدم ينزف من أطرافه وبجانبه سيدي إبراهيم نفسه كان مرفقا بهالة من النور التي تعمي الأنصار"[1].

أما السبب الثاني فهو حالة الجهل، الذي تعيش فيه الأنا الجزائرية، فالجهل يعمي الأبصار حتى لا ترى الحقيقة الحتمية في قول الأمير: "الجهل ياسي قدور أكثر خطرا من الأعداء الواضحين، الجهل عدو مدسوس فينا، يمكن أن ينفجر بين يديك في الوقت الذي لا تنتظره فيه أبدا"[2]، وفي قول الأمير محاورا القس" مونسينيور":

"كنا نظنكم تعيشون الجاهلية فاكتشفنا الجاهلية فينا يا سيدي"[3].

وفي قوله كذلك:

([1]): المصدر نفسه، ص470.

([2]): المصدر السابق، ص288.

([3]): المصدر نفسه، ص42.

"ابتداء من اليوم كل شيء سيتغير ... الإنتصار على الغزاة صعب.... نحتاج إلى تغيير سلوكاتنا اليومية"[1]، ويبرز لنا أيضا في قول" السي قدور" محاورا" الأمير":

"لكنه من الصعب ياسيدي تغيير الذهنيات ألم تقل حجارة الصوان أهون لي من عقل متحجر يعوم في الخرافة"[2].

كما أن المجتمع الجزائري آنذاك كان يؤمن إيمانا شديدا بالتنبؤات التي تصدر عن أفواه الدراويش، أو المجانين وهذا مازادهم تخلفا مثل تلك المنامة التي رآها "سيدي الأعرج" وأخبر بها كل قبيلة "محي الدين"؛ وتتمثل في مجيء فارس يخلص الجزائريين من المستعمر الفرنسي وهو "الأمير عبد القادر"، حيث يقول الراوي:

"أبشركم أن هاتفا وقف على سيدي لأعرج وسيدي محي الدين وبشرهم بسلطان سينزل من لحمهم فارس، لاشيء يشبهه فيه من روح الله واستماتة المجاهد وسمة الأنبياء"[3].

كما يمكن أن نرجع سبب تخلف الأنا إلى الجوع والفقر والحرمان واليأس والقنوط الذي سببه الآخر/ الفرنسي المستعمر، الذي يرغب ويسعى دوما إلى نهب والاستيلاء على كل خيراتها ،وما يؤكد لنا هذا قول الأمير في المقطع الروائي الآتي:

"قبائل بني عامر تركب الدائرة واحتمت بسلطان المغرب.... اعذرهم فالجوع وهمجية الريافة كانا وصلا إلى حد لم يعد يطاق"[1].

([1]): المصدر نفسه، ص120.

([2]): المصدر نفسه، ص230.

([3]):المصدر نفسه ، ص65.

وفي قول الراوي عن جيش "دوميشال" لما رجع منتصرا على الأمير في الحرب الضروس التي دارت بينهما:

"فبدأ يعد مكاسبه وغنائمه الكثيرة ألبسة نسائية غالية وحزامين ذهبيين وأسلحة صغيرة، وبعض المصاحف المخطوطة... والكثير من الأواني النحاسية وغيرها"[(2)]

كما أن المجتمع الجزائري آنذاك، أوفي تلك الحقبة تحكمه العصبية القبلية، فكل قبيلة تود أن تتفرد بالحكم ويكون السلطان من أقاربها وذويها، فهم لم يتفقوا على سلطان وحاكم واحد يسوس على كل قبائل الغرب الجزائري، فأخذت القبائل ترتد الواحدة تلوى الأخرى لتتبع الآخر/ الغربي، وهذا ما أضعف حكم "الأمير"؛ ويتجسد لنا هذا في المقطع الروائي الآتي الذي جاء على لسان الأمير: "الذي لم أفهمه جيدا هو الانقلابات التي تحدث في الناس فجأة، الذي كان معك البارحة يصير اليوم بسهولة عدو لك، الخليفة مازاري، البارح قاتل بجانبنا واليوم صار معهم... من الصعب الثقة في هذه القبائل التي تلبس في كل يوم عباءة جديدة"[(3)].

وفي قوله أيضا:

"الخداع متأصل فيهم وفي ذريتهم. لقد ناصروا دائما القوي مع الواقف دوما"[(4)].

وفي قوله: "تضع اليوم خليفة وفي الغد يأتيك الخليفة نفسه مدججا بالأسلحة للفتك بك"[(5)].

([1]): المصدر السابق ، ص317.

([2]): المصدر نفسه، ص346.

([3]): المصدر السابق، ص464.

([4]): المصدر نفسه، ص38.

([5]): المصدر نفسه، ص203.

إضافة إلى الخلافات والنزاعات والأحقاد التي تكنها دولة عربية لدولة عربية أخرى ،فتحاول الفتك بها ،وخير دليل على هذا خيانة ملك المغرب "مولاي عبد الرحمان" السلطان عبد القادر، وهذا بارز في قول الأمير : " لقد حاربتهم وسودت معيشتهم وعندما تخلى عني أهلي طلبت من سلطات المغرب مساعدتي فباع رأسي لأعدائي"(1).

فسلطان المغرب خائن مرتد ناصر أعداء الله وأصبح سندا قويا بالنسبة لهم، حيث قام بتسليمهم المخطط العسكري للحرب التي سيخوضها "الأمير" في جبال "أمسيراد" بسهل "أغريس" حتى يتم القبض عليه. ويبرز هذا في قول" البوحميدي "للأمير :

"سلطان المغرب خرج عن الإسلام لأنه يناصر أعداءه فوجبت محاربته"

وفي قوله أيضا:

"سلطان المغرب يحاصرنا ويمنع القبائل من الإتجار معناه الأمور صارت الآن أكثر وضوحا يريدون قتلنا جوعا"(2).

فالأمير في هذه الحالة أصبح بين نارين مهولتين نار العدو المحتل، ونار الأخ الذي يسعى للفتك بأخاه.

إذن فهذه هي أهم النقاط التي جعلت الأنا الجزائرية ممثلة في الأمير عبد القادر، متخلفة بسيطة بدائية منهزمة ومنكسرة أمام الأخر المنتصر عليها فهي تنظر إلى نفسها بنظرة سلبية وإلى الآخر الفرنسي بنظرة – إيجابية – تفوق ازدهار – تطور، رقي، فأعجبت وانبهرت به مما جعلها

---

(1): المصدر نفسه، ص464.

(2): المصدر السابق، ص406.

تخون أتباعها وأهلها وقومها، واتبعت الآخر الفرنسي المختلف عنها دينيا، ولغويا، وثقافيا، بطريقة عمياء، أمثال القائد "يوسف" و"مصطفى بن إسماعيل"، و"ملك المغرب" و"الخليفة سي العربي".

أما "الأمير عبد القادر" فهو مؤمن بالتعايش بين الأنا والآخر؛ أي لابد من الحوار والتسامح بينهما بدل الحرب والجرحى والموتى.

إذن فالقائد "يوسف" و"مصطفى بن إسماعيل" والخليفة "سي العربي" و"الأمير" رؤاهم قائمة على تشخيص النظام السياسي، وطبيعة الحكم، فهم يرون في فرنسا مكانا للحرية والمساواة والديمقراطية الحقة والإنسانية المطلقة ومملكة لحماية حقوق الإنسان من الاستبداد والقهر والرعب والقمع الذي يسلطه الجزائري على أتباعه ولعل المقاطع الروائية الآتية تبين هذا في قول "يوسف" محاورا "سي العربي":

"أنا كذلك تخليت عن وطني عندما وجدت أنه من الأجدى لي خدمة دولة قوية تضمن حقوقي وحقوق أبنائي جيلنا الذي تعلم لم يعد قادرا على تحمل تخلف ناسه وأقربائه" (1).

وفي قول الراوي عن الخائن" مصطفى ابن إسماعيل"، الذي تم إعدامه من طرف فرسان الأمير: "لقد قدم خدمة كبيرة لأعداء دينه وأرضه"(2)

فملك المغرب ارتد وخان الأمير وكذلك مصطفى، الذي أصبح سندا قويا للغزاة فهو يرى أن" بيجو" سيضمن له حريته وحياته وحقوقه وديمقراطيته.

([1]): المصدر السابق، ص340.

([2]): المصدر نفسه، ص351.

فالأنا/ الأمير حين سقطت زمالته على يد الآخر/ الفرنسي المستعمر في جبال" امسيراد" فضل أن يسلم نفسه إلى الآخر الفرنسي / لاموريسيير على أن يضع نفسه بين أيدي إخوانه الذين خانوه، لأنه كان يعلم أن الأخلاق العسكرية للفرنسيين تقدر وتحترم قائد الحرب وتمنع قتله والتنكيل بجثته، فدولة عظيمة كفرنسا تحفظ حقوق، وحريات الآخرين في رؤيته حيث يقول محاورا القس الكبير مونسينيور ديبوش: "فضلت أن أضع مصيري بين القائد الفرنسي لاموريسيير وأترك البقية لله وحده كان بيده مصيري، ولكني كنت أعرف أن ثقافتكم تمنع قتل القائد بل وتحترم شجاعته وتقدر استماتته من أجل المثل الذي يدافع عنها"(1).

وفي قوله:

"أعرف قواعد المملكة الفرنسية وأعرف كذلك أنه إذا كان الفرنسيون أقوى من الأمم الأخرى فلأنهم لا يخالفون عهودهم" (2) .

"الناس بأفعالهم يبدو أن الجنرال دوميشال صادق في معاهدته فقد أطلق سراح محبوسيه كما وعدنا... سرح سجناء بوابيي بمرسى الكبير وسكان الغرابة... أليست هذه دلائل كافية للثقة فيه"(3).

---

(1): المصدر نفسه، ص207.

(2): المصدر السابق، ص63.

(3): المصدر نفسه، ص25.

إذن "فالروائي واسيني الأعرج" استطاع من خلال رواية" كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد" أن يمرر رسالة إنسانية عظيمة؛ ألا وهي تقدير واحترام الإنسان كإنسان بغض النظر عن دينه وعرقه ولغته، فجل مقاطع الرواية قائمة على الحوار الحضاري والتعايش والتسامح بين الأنا والآخر وفي هذا الإطار يتم تبادل الأفكار والرؤى المتفقة أحيانا والمتعارضة أحيانا أخرى على المستوى الديني والفكري والإنساني والعلمي.

كما أن الروائي أشاد ونوه بالآخر / الفرنسي، وفي المقابل انتقد الأخلاق العسكرية الحربية للأنا/ الجزائري حيث مرر هذه الفكرة على لسان شخصيات غربية، أي من وجهة نظر الآخر/ الغربي، حيث كانت ترى أن الغرب لا يتحلون بالأخلاق الحربية لأنهم ينكلون بجثث ضحاياهم، ودليل هذا المقطع الروائي، الذي يصف لنا حالة المرأة الغربية التي طلبت من القس "مونسينيور" أن يساعدها وينقذ زوجها من سجن "الأمير" في قول الراوي (جون موبي):

"وهي ترجوه أن ينقذ زوجها، وتضع بين يده رضيعها، وهي ترتعد من شدة البرد ومن الخوف على زوجها، فقد وصلها أن العرب عندما يلقون القبض على ضحيتهم لا يفكرون في حل آخر إلا قطع الرؤوس ... وأحيانا يكتفون بقطع الآذان"[1] .

كما وصف لنا المقطع الآتي الإنسانية التي يتحلى بها "موريس" في الحرب، وفي المقابل وحشية وهمجية الأخلاق الحربية للكولونيل العربي " يوسف"، حيث أن "موريس" لم يرد إطلاق

([1]): المصدر السابق، ص48.

الرصاصة الأخيرة على جريح الحرب لكن الكولونيل "يوسف لم يتردد على فعل ذلك، لأنه في الغالب يطلقها هو بلذة ويسميها "رصاصة الرحمة" حيث يقول موريس محاورا يوسف:

"ولكني لا أتجرأ على قطع رأس عدوي وهو موجود تحت رجلي، جريحا وغير قادر حتى على الحركة ومجرد من أي سلاح هذه الرومانسية لا أعرفها ياموريس"[1] .

وفي قول الأمير عن "مصطفى بن إسماعيل" الذي ارتد واتبع الغزاة:"ظل حاملا سيفه... يقطع الرؤوس وفي كل رأس يقطعه.... لم يكن رحيما مع أحد"[2].

وفي قول" يوسف" لما سأله الدوق "دومال" عن الخسائر التي سببتها الحرب التي خاضها مع الأمير؛ و يدل المقطع الروائي في الوقت نفسه على نظرة الآخر/الغربي للعربي على أنه همجي ووحشي وبربري:

" وخسائرنا.... تكاد لا تذكر يا صاحب السمو، وخسائرهم أكثر من 300 رأس و 600 زوج من الآذان... فهم الدوق دومال قصده جيدا: أتمنى أن لا نصل إلى الحالة التي يقال عنا فيها إننا نقلدهم في قتل المساجين"[3].

وفي قول "الأمير عبد القادر" لما قتل أتباعه المساجين الفرنسيين دون علم منه :

"ماذا أقول للذين رأو فينا قدوة تتبع اتجاه المسلمين ها قد عدنا لإسلام لا يعرف إلا الحرق والتدمير والقتل لقد أمضيت كل سنوات الحرب أثبت للآخرين بأننا نحارب ولكن لنا مرؤة ورجولة،

([1]): المصدر نفسه، ص34 .

([2]): المصدر نفسه، ص351.

([3]): المصدر السابق، ص346.

لقد دفعنا أعدائنا لتقليدنا ولكن في رمشة سكين ذهب كل شيء مع الريح"[1]، فالروائي إذن يصور الأنا بأبشع الصور؛ لا تملك أدنى مبادئ الأخلاق "خاصة الحربية " وهذا من خلال توظيفه لشخصية الكولونيل "يوسف".

كما أن رواية "الأمير مسالك أبواب الحديد" قدمت وجهات النظر المتعددة للآخر / الفرنسي اتجاه الأنا الجزائرية / الأنا حيث قدمت تارة بنظرة سلبية-لا تملك أخلاق- وتارة أخرى بنظرة إيجابية-الشجاعة، و البسالة و الصداقة-، وهذه الأخيرة تكشف عن المسكوت عنه والجانب الخفي في حياة الأنا وتكون شاهدة على بطولاته وتتصفه في إنسانيته التي شوهت بسبب عرقه وانتمائه.

إذن "فواسيني الأعرج" قدم الأنا/ الأمير في صورة إنسان عادي، وليس كأسطورة -كما يراه المخيال العربي- هو إنسان يخطئ ويصيب، يحزن ويفرح يتألم ويقنط، ودليل هذا المقطع الروائي الآتي الذي يصف حادثة عدم معلمه وأستاذه" أحمد بن الطاهر" من طرف أبيه "محي الدين" حيث يقول الراوي:

"رفع عبد القادر لحاف برنسه ومسح عينيه تبكي يا ابني ؟

لا أمسح الغبار من على وجهي، كان الله يرحمه أستاذي .....

كان أستاذي يا الله...... خسارة كبيرة"[2].

إذن فالأمير/ الأنا ليس مجرم حرب كما يتصوره الغرب/ الفرنسيين، وليس ملاكا، أو نبيا بل هو مجرد إنسان عادي .

([1]): المصدر نفسه، ص307.

([2]): المصدر السابق، ص351.

فإذا تصوره الغرب مجرم حرب هي نظرة سلبية، وإذا رأوه ملاكا، أو نبيا هي نظرة إيجابية ولنؤكد قولنا نستدل بالمقاطع الروائية الآتية:

التي تعترف بالحنكة والشجاعة العالية" للأمير" حيث يقول: لبرانس "دولاموسكوفا:

"قطع بكل شجاعة مسالك الملوية على الرغم من قوة مياهها والأوحال والأمطار هو والستة آلاف شخصا.. حنكة عسكرية عالية تستحق كل التقدير والاحترام"[1].

وفي قول "لاموريسيير": "يمكن اعتبار الأمير قائدا ومقاتلا سلم نفسه وفق وعد مكتوب وفي هذه الحالة يجب أن يعامل باحترام"[2]

وفي قول "لاموريسيير" أيضا :

"يمكن اعتبار الأمير قائدا ومقاتلا سلم نفسه وفق وعد مكتوب وفي هذه الحالة يجب أن يعامل باحترام"[3].

وفي قول الراوي :

" ينهض الجنرال ماربو وقد احمر وجهه وعلت حواجبه الكثة سحابة ظاهرة وغموض مربك مقاطعا المتدخل الذي لم يكن قد أنهى كلامه ببرودة كبيرة يجب أن لا ننسى أبدا أن هذا الرجل الذي تدافع

([1]): المصدر نفسه، ص38.

([2]): المصدر نفسه، ص40.

([3]): المصدر السابق، ص63.

عنه اليوم ذبح أكثر من 300 سجين فرنسي في يوم واحد، إذا كنتم تعتبرون هذه الجريمة أمرا هينا فأطلقوا سراحه ومرغوا شرف هذه البلاد في الأوحال"[1].

وأيضا في قول لبرانس "دولاموسكوفا" لما دافع عن الأمير في مجلس البرلمان الفرنسي:

"يمكن أن نذكر الآن كل سلبيات عبد القادر وهي كثيرة جنرال ماربو.... لكن..... من يستطيع أن ينكر على عبد القادر أنه قاوم من أجل وطنه ودينه ويستحق كل تقدير من جيشنا.... فقد بادل الجنرال الفرنسي سيفه بسيف الأمير"[2].

وفي قول رئيس مجلس البرلمان "غيزو ":

" يجب أن لا نقلل من خطر هذا الرجل حتى وهو في بلد آخر سيفكر حتما في العودة وتأجيج نيران الأحقاد"[3]

وفي قول القس الأول للجزائر" ديبوش" في حواره مع "جون موبي":

"هل يمكن أن يكون رجل مثل هذا قاتلا أو مجرما كما يريد إقناعنا الذين خانوا ما وعدوا به... الأمير يحارب بأخلاق المحارب الكبير" [4].

([1]): المصدر نفسه ، ص19.

([2]): المصدر نفسه، ص47.

([3]): المصدر نفسه، ص31.

([4]): المصدر السابق، ص321.

وفي قول الراوي: "هناك كثير من الفضوليين الذين يريدون معرفة هذا الرجل الذي تحدثت عنه الصحافة... كشيطان رجيم لا يرتاح إلا إذا ارتوى بالدم... والقاتل الذي استل سكينه ذات ليلة لينزع أكثر من 100 رقبة"[1].

وفي قول الراوي لما أراد الأمير مغادرة باريس (المنفى) متجها إلى تركيا البلد الإسلامي الذي اختاره لنفسه:

"كانت الجموع المصطفة على طول الشارع، تتدافع لرؤية الأمير الذين سمعوا عنه الكثير وصورته الجرائد اليومية في كل الأوضاع تارة مقاوما شرسا، ملاكا، روحانيا، وتارة ماردا قاتلا ودمويا يتلذذ بدماء خصومه الذين يذيقهم كل ألوان التعذيب"[2].

أما الرؤية الثانية: هي علاقة الاشتباك والصراع والمقاومة بين الأنا/ الأمير، والآخر / الاحتلال الفرنسي الغاشم الذي سلب ونهب أرضها ووطنها، هذا النوع يرى أن الآخر/ الفرنسي مخالفا ومقابلا للذات/ الأنا الجزائرية، لأنه يحاول تهميشها وإقصائها ومحوها فيمارس عليها كل أنواع الاضطهاد والتعذيب، فيصبح في نظرها شيطانا لا يعرف الرحمة، ومستعمرا لا إنساني، وعدوا لدودا.

إذن فالعلاقة بين الأنا والآخر، علاقة عدائية، تتسم بالتوتر والاضطراب بعيدة كل البعد عن التعايش والسلم والسلام والأمان، لأن هدف كل واحد منهما تقويض ومحو الآخر بأية وسيلة كانت والمقطع الروائي الآتي الذي جاء على لسان الجنرال "بيجو" بين هذا:

([1]): المصدر نفسه، ص225.

([2]): المصدر نفسه ، ص570.

"عبد القادر سيحصر في مربع ضيق... وقتها سنقطفه كالتينة اليابسة"[1].

وفي قول الأمير في السياق نفسه:

"نحتاج إلى فرض قوانا وإلا ذهبت أخبارنا مع الريح ... أقسم أن أدافع عن راية الإسلام وسأحارب كل من ينكر سلطاني الذي هو سلطان الله، وكل من ساعد أعدانا فهو عدو لنا وعدو لدينه"[2].

فهدف الأنا، هو الدفاع والذود عن الدين الإسلامي والأرض لأن الصراع بينهما، هو صراع ديني عقائدي، أولا وقبل كل شيء، ليكون بهذا "الأمير" في صراع وصدام دائم مع الآخر، وهذا الصدام يتم وفق معادلة؛ **طرفها الأول**:الإحتلال الفرنسي الذي يريد فرض سيطرته وهيمنته ويسعى إلى محو الأنا الجزائرية كليا من الوجود، ويبدو هذا من خلال المقطع الروائي الآتي الذي جاء على لسان (بيجو):

"لقد قمت بمجهودات كبيرة لإقناع بلادي للاستيلاء الكلي والنهائي على الجزائر... والآن يجب إخضاع العرب وتسليط الحرب الشاملة يجب أن يظل العلم الفرنسي هو العلم الوحيد الذي يرفرف على المملكات"[3].

والطرف الثاني: الأنا الجزائرية تحكمه ثقافة إسلامية عربية، تقدس وطنها، تذود عنه وقت الاحتلال، تحاول استرجاعه بأية وسيلة كانت، ويتجسد هذا في المقطع الروائي الآتي حيث يقول الأمير:

([1]): المصدر السابق ، ص380.

([2]): المصدر نفسه ، ص303.

([3]): المصدر السابق، ص303.

"ما يزال هناك متسع للمقاومة والقتال الذي فرض علينا... إن العرب من ولهاصة حتى الكاف مصممون على خوض الجهاد لا يمكنني إلا أن أكون بجانب الذين بايعوني في هذا المنصب"[1].

وفي قول"البوحميدي": "فرنسا تريد الحرب فليكن، نحن لها، وهذه المرة سنحرر ليس العاصمة وفقط ولكن الشريط الساحلي بأكمله"[2].

إذن فالأنا والآخر عدوان تاريخيان، ولا يمكن لهما العيش جنب إلى جنب، فالمصالح لا تتفق بل تختلف وتتعارض وتتناقض بينهما، وهذا ما أدى إلى نشوب؛ أو قيام حرب ضروس بينهما، أودت بأحدهما إلى الاستسلام والإيمان بالقدر المحتوم(المنفى الذي فرض على الأمير) لأن الغلبة في هذه المعادلة للقوي.

"فالأمير عبد القادر" بايعته القبائل للتصدي للآخر، و تحرير أرضهم من سيطرتهم عليها، حيث حاول كثيرا لنصرة دين الله (الإسلام) وأرضه، فيقول في صك البيعة:

"لا بد من حماية البلاد من العدو الذي غزا أرضنا وهو يهدف للسيطرة علينا... وجب الامتثال إلى تعاليم الشريعة المقدسة وكتاب الله وأن يقيموا العدل على هدى سيرة رسوله بأمانة" [3].

([1]): المصدر نفسه، ص300.

([2]): المصدر نفسه، ص295.

([3]): المصدر السابق، ص19.

فالأنا صرحت بالرفض والتمرد والسخط والاستنكار فأعلن بصوت مرتفع العنف الثوري ضد الآخر فاستشهد الكثير من أتباعه أمثال: "سي المبارك بن علال"، بعد محاربتهم بكل شجاعة وبسالة في قول الرواي:

"…. لمحو آثار البارود العالقة بالجدران الخشنة التي خلفتها المقاومة" [1]

وفي قول الأمير:

" ابتداء من اليوم كل شيء سيتغير لسنا في حاجة إلى هذا البذخ لكي نحارب الآخرين"[2]

"فواسيني الأعرج" اقترب من ساحة القتال، أي المعركة فصور ما كان بين الأنا والآخر، فضمن جل مقاطعة الروائية أعمال النضال والمقاومة والصراع لأن ثورة وتمرد الأنا، ينتج عنه التحرر من الآخر / الاستعمار ومن كل مظاهر الحرمان والاضطهاد، والقهر والظلم الذي يمارس عليها، لأنه شرس في كل مرة يعمل على تدمير المدن، سلب الثروات، هتك الأعراض والأموال حيث يقول الأمير:" الجيوش الفرنسية على الأبواب، تهدد بتدمير معسكر، وحليفنا الكبير قبائل غرابة، ضربت فجرا، من طرف دوميشال وأخذ مالها وهتكت أعراضها وسبيت نساؤها ونهبت أموالها ومواشيها"[3].

([1]):المصدر نفسه ، ص38.

([2]):المصدر نفسه، ص20.

([3]):المصدر السابق، ص65.

لكن كلما كان هناك فعل من طرف الآخر/ المستعمر، كان رد فعل من طرف الأنا /المستعمرة، فتبرز وتظهر لنا بطولاتها وبشاعة الحرب وفظاعتها في عنفها الشديد وصراعها المرير ضد قوات الاحتلال، في قول الراوي:

"الليل وحده كان قادرا على شل ردة فعل القبائل لوهران التي تحاصر القوات الفرنسية وتمنعها من التقدم، أصعبها قبيلة غرابة من أشد القبائل وفاء للأمير"[1].

فاستطاع "الأمير" بهذا استرجاع، وتحرير بعض المناطق التي تمت السيطرة عليها من طرف الآخر مثل: مدينة وهران، حيث تمكن من استرجاعها بقوة، لا يمكن وصفها، في قول الراوي:

" الأمطار لم تسمح لقوات الأمير بالهجوم على القلعة....وصار أي هجوم هو مغامرة غير مأمونة النتائج، فقد جاء الأمير إلى وهران وفي رأسه إعادة حصار المدينة وإغلاق كل منافذها حتى انصياع دوميشال لكل شروطه"[2].

وبهذه الحروب، تحول سكان الجزائر إلى أناس تعساء قابعون، تحت نيران الاستبداد، والظلم، والقهر، والحرمان، وجميع ويلات الحرب، حيث هجم الآخر /المستعمر على مدن كثيرة واستولى عليها (وهران، معسكر، مليانة، تلمسان....)، ثم قام بمحاصرة الأمير حتى استسلم ونفي إلى فرنسا، لأن الحظ لم يكن معه، قبائل ارتدت وخانت، واتبعت العدو الفرنسي، وعلى رأسهم

([1]):المصدر نفسه، ص48.

([2]): المصدر نفسه، ص156.

"سلطان المغرب" ومدينة "عين ماضي"، فانعدم السلم والأمان والاستقرار، وهم من أهم أسس بناء دولة قوية ومتينة، ويبدوا هذا مجسدا في المقطع الروائي الآتي ،حيث يقول الراوي:

" أصبحت طبول الحرب تقرع نهارا وجهرا ولم يعد أحد يتحدث عن السلم والأمن قبيل الحديث عن ماضي لهم يعد موجودا إلا في الذاكرة" [1]، فبينت لنا بعض المقاطع وحشية الإستعمار، وهمجيته وأنواع التعذيب، والتقتيل الجماعي الذي يسلطه على المناضلين والمكافحين، الذين يطالبون بالحرية والاستقلال التام ؛وهذا الفعل الأخير الذي أقدم عليه رغبة ،أو بغية منه في محو وتهميش وتقويض الأنا نهائيا؛ حيث جاء على لسان "الأمير": "هدف كلوزيل الذي بدأ يزحف نحو معسكر هو الاستيلاء على كل المدن المهمة و قص أجنحتنا" "[2].

وفي قوله أيضا:

([1]): المصدر السابق، ص55.

([2]):المصدر نفسه، ص351.

"في رأس الجنرال كلوزيل شيء واحد ووحيد: تخطي وادي الهبرة ومحو عاصمة الأمير معسكر بشكل نهائي"[1].

وفي قوله: "الجنرال تريزيل جاد في تحركه، وهو هنا لسحقنا أنا متأكد"[2].

وبالتالي فالمستعمر يسعى دائما إلى فرض سيطرته وهيمنته على أكبر عدد ممكن من المناطق في ربوع الوطن، وهذا ما أثار غضب وسخط الأنا، ويبدوا هذا من خلال المطلب الذي قدمه "تريزيل" للأمير، حيث قال الراوي:

"فقد طلب تريزيل من الأمير الاعتراف باستقلالية الدوائر والزمالات والغرابة وكروغلي تلمسان والقبول ببيعتها للتاج الفرنسي والتوقف النهائي عن المطالبة بالأراضي الواقعة على الضفة اليمنى لنهر الشلف وإلا فلا مناص من الحرب التي ستحرق الأخضر واليابس"[3].

والمتمعن في هذه المقاطع الروائية يكتشف أن الروائي "واسيني الأعرج" ركز على عالم الحرب، والصراع والعدوان ليكشف عن الجرح، والأثر الكبير الذي تحدثه في نفس الإنسان. وليصور لنا غدر ونجاسة وخبث الآخر/ المستعمر، حيث قال الراوي عن "الليوتنانت كولونيل بوفورت":

"كان مثل الثعلب يتشمم كل الحركات، ولا يتوانى عن الرمي حتى ولو صدر ذلك عن أرنب أو حيوان مذعور " [1].

([1]):المصدر السابق، ص285.

([2]): المصدر نفسه، ص520.

([3]):المصدر نفسه، ص85.

إذن فالآخر ثعلب مكر بالنسبة للأنا، لأنه هتك عرضها واغتصب أرضها، وفي ظل هذه الأوضاع المأساوية الخانقة يضطر العديد من النساء والرجال، على الثورة والتمرد فيواجهون بطش واستغلال وقمع المستعمر، فيلحقون به أضرار جسيمة في ساحة المعركة، فيهزم الآخر رغم تفوقه، وتطوره على الأنا ويبدو هذا في قول الراوي:

"كان عدد الموتى والجرحى كبيرا مما اضطر تريزيل إلى إفراغ الكثير من العربات من الخيام والمؤن وملأها بالجرحى"[2].

فالآخر/ الفرنسي منذ أن وطأت قدماه أرض "الجزائر"؛ هدفه كان واضحا ويتمثل في محو الهوية الوطنية الجزائرية وطمس الثقافة العربية، حيث أقدم الجنرال "بيجو" على حرق كتب "ابن العربي"، و"ابن خلدون"، وجل الكتب التي وجدها في مكتبة الأمير، والمقاطع الروائية الآتية التي وردت على ألسنة شخصيات عديدة تبين لنا هذا، حيث قال الكابتن"أوجين دوما" محاورا الأمير:

"لم تغيرك فرنسا كثيرا وهي التي كانت تحلم بأن تجعل منك مواطنا من ذويها"[3]،وفي قول الراوي: "حيث تم تحويل المساجد إلى كنائس أو إلى مستشفيات وهذا لم يحبه المسلمين "[4].

فالروائي بهذا كتشف لنا عن هدف كل من الأنا والآخر:

([1]): المصدر السابق ، ص135.

([2]): المصدر نفسه، ص285.

([3]):المصدر السابق، ص430.

([4]): المصدر نفسه، ص351.

الأنا: هدفها التحرر ونيل الاستقلال التام على كامل التراب الوطني.

الآخر: هدفه محو الشخصية والهوية الجزائرية، محو الدين الإسلامي ليحل محله المسيحي، نهب ثروات وخيرات أرض الأنا واستيلاء عليها كاملا، محو الأنا الجزائرية كليا من الوجود، حيث قال قائد الحرب/ الأمير عبد القادر :

"تنقلاتي لا تسمح لي بأي شيء في هذه الدنيا إلا نصرة الحق وتحرير هذه الأرض من الاستعمار"[1].

وفي قول المحارب والمكافح الكبير قدور بن علال:"أشعر بحزن يا سيدي، أخاف من هؤلاء النصارى الذين دخلوا غزاة على هذه الأرض ولم يدخلوها طالبي أمان الثقة فيهم صعبة لقد قتلوا وشردوا وذبحوا ونزعوا الرؤوس لكل من قاومهم أو خالفهم الرأي"[2].

فعملية غزو الأرض الطيبة "الجزائر"، إذن هي بداية صراع مرير وشرس خاضته وعاشته الأنا المجاهدة/ الأمير تحت راية الإسلام، فدافعت عن دينها ولغتها، وثقافتها، ووطنها وذاتها لأن الفرنسي جاء ليدمر ويهدم الأنا الجزائرية، لا ليبني ويشيد .

وفي قوله أيضا: "اتفقنا على الحرب دفاعا عن هذه الأرض، نخوضها والله وحده يعلم النهايات[3].

([1]): المصدر نفسه، ص276.

([2]):المصدر نفسه، ص465.

([3]): المصدر السابق، ص313.

وفي قوله : "فقد أخذ من كل شيء واعتدى علينا ولم نعتد على أحد خيرنا بين أمرين إما الرحيل والموت أو التسليم في الأرض"[1].

لقد خاضت الأنا / وقوات المقاومة الجزائرية معارك كثيرة في مدة 15 سنة، لكنها استسلمت في إحدى المعارك بسبب الذهنية، أو العقلية الجزائرية المتخلفة البدائية والنزاعات الداخلية؛ مثل خيانة ملك المغرب للأمير وارتداد بعض القبائل التابعة لحكمه .

فالأنا/ انهزمت واستلمت ونفيت إلى فرنسا (السجن)فكان حزنها كبير، لمغادرتها الأرض ولانهزامها وخسارتها الحرب، فالمحتل انتصر وتمكن من تمزيق القيادات الجزائرية ونجح في تكوين فئة من العملاء أمثال "يوسف" و"مصطفى بن إسماعيل" و"السي العربي"، ودمر المساجد الإسلامية غير أنه لم يتمكن من تمزيق الشعب الجزائري ككل ولم يتمكن من تحطيم عزيمته، لأن الإسلام أقوى وبعيد كل البعد عن الهزائم، فاستمر الجزائري عبر صراع مرير ليس له نظير في الضراوة والعنف والقسوة، حتى انتزعت الأنا من الآخر الحرية والأرض ونال الاستقلال التام سنة 1962؛ ولعل المقاطع الروائية الآتية تبين حزن وألم الأنا بعد استسلامها: "التدمير كان ضربة قاسية، في اللحظة التي ترى فيها ألسنة النار تأكل سنوات العمل تشعر بالغبن لأنك لا تملك الوسائل التي تدافع بها عن بيتك ومصانعك وناسك... قاسية هي الدنيا "[2].

([1]): المصدر نفسه، ص330.

([2]):المصدر السابق، ص331.

وفي قول الراوي: "رأى الأدخنة المتصاعدة... ورأى بألم كبير الثلاثمائة فارس الذين ارتموا بقوة في أتون النار وهم يعرفون سلفا أنهم سيموتون"[1].

"كان الهجوم كاسحا ومباغتا، الدفاع صار حالة انتحارية لم يعد الانتصار مهما بالنسبة لأتباع الأمير"[2].

إذن فالأنا انهزمت والآخر انتصر، لأنه كان أقوى منها بكثير خاصة فيما يخص الوسائل الحربية (المدافع....)، فأحبطت وخابت آمال القبائل، وتمنوا مستقبلا أفضل للأرض الطيبة (الاستقلال)، على أياد تضعها في قلبها وتحفظها في أعينها؛ حيث قال الأمير بمرارة كبيرة:

"لقد شاء الله أن تنتهي هذه الحرب، يجب أن نقبل بهذا القدر قاتلنا مدة 15 سنة لإنقاذ شعبنا من غطرسة الغزاة "[3]؛ وفي قول الراوي أيضا:

"كلهم قد أصيبوا بخيبة كبيرة كانت مرارة تبدوا واضحة على عيونهم التي لم تنم الليل بكامله ... الكثير خرج ليبكي بعيدا عن الأنظار"[4].

وما إن سقطت دولة الأمير (معسكر)، تحت سيطرة قوات الغزو الفرنسي وتم نفيه، وسجنه في فرنسا قصر (قصر أمبواز)؛ في قول الراوي: "كانت الوجوه باردة كوجوه الأموات وهي تودع الأمير

([1]): المصدر نفسه، ص332.

([2]): المصدر نفسه، ص345.

([3]):المصدر نفسه، ص461.

([4]): المصدر السابق، ص463.

في خروجه الأخير بالمجهول "[1]؛ وهناك مورست عليه جميع أنواع الاضطهاد والقمع والاستبداد من طرف الآخر، حيث تم حشره كأي سارق أو رهينة.

لم يعامل الأمير في فرنسا كقائد حرب ومقاتل كبير فأغلقت عليه في قصر أشبه بالقبر حيث قال الراوي (جون موبي):

"شعر مونسينيور بامتغاص كبير قبل أن يدخل إلى الدهليز الضيق المؤدي إلى الحجرات التي يحتجز فيها الأمير وعائلته المليئة برائحة الرطوبة والعفن الذي يشبه الرائحة التي تخلفها الفئران عندما تعبر مكانا تاركة وراءها شعرها ورائحة بولها القوية التي تحرج خياشيم الأنف"[2] ؛فالنفي بالنسبة له ليس سجنا معلنا، ولا ضيافة واضحة، ولا كرما فائضا.

وفي ختام هذا الفصل يمكنني القول أن رواية "كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد"، رواية وتجسد صورتين:

الأولى: صورة عدائية للآخر الفرنسي، مبنية على النبذ والاحتقار والازدراء.

الأنا /مجسدة في شخصية الأمير عبد القادر الجزائري الذي تعرض للقمع والاضطهاد، والنفي، والتعذيب والطرد من الأرض الذي حارب لأجلها مدة طويلة.

([1]): المصدر نفسه، ص480.

([2]): المصدر نفسه، ص36 .

الآخر: المستعمر الفرنسي الغاشم الذي اغتصب وسلب أرض الأنا، فاضطهد أهلها وشردهم ودمر منازلهم ونكل بأبنائهم، وزجا بهم في السجون ومراكز الإعتقال.

أما الصورة الثانية :هي علاقة الحب والصداقة و الوفاء بين الأنا/الجزائرية والآخر/الفرنسي .

وهاتان الصورتان تنمان عن رؤية الروائي" واسيني الأعرج "للعرب والغرب معا.

الفصل الثالث:

الفني والإيديولوجي

أولا : الأنا بين الانفتاح والانغلاق:

تميل الأنا الجزائرية / الأمير عبد القادر في ثنايا الرواية ،مرة إلى الانفتاح على كل ما جاء به الآخر/ المستعمر وهذا لمواكبة العصر آنذاك، ومرة أخرى إلى الانغلاق والقطيعة معه للحفاظ على الدين والهوية والثقافة والحضارة ... الخ

أ- الأنا والانفتاح:

لقد وردت في رواية "كتاب الأمير" مشاهد حوارية كثيرة وعديدة؛ توحي بانفتاح الأنا الجزائرية على الآخر الغربي، ثقافة وحضارة وعلوما.....الخ

"فالأمير عبد القادر" في الرواية انفتح وتبنى فكرة الانفتاح لمسايرة العالم، الذي شهد تقدما وتطورا ورقيا آنذاك، ففتح كل الأبواب أمام حضارة، وثقافة، وعلوم الآخر المستعمر؛ حيث قرأ الكثير من الكتب الفرنسية، وقرأ الإنجيل، وبيرز، أو يظهر هذا في قول "الأمير" محاورا القس "مونسينيور": "بدأت أقرأ كتابكم الإنجيل.... لكن هذه المرة أنا مصمم على قراءته كاملا"([1]).

([1]):واسيني الأعرج:كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 2008، ص36.

فالأمير نادى التقدم والرقي والازدهار والتطور، حتى إن كان على حساب بعض المبادئ والأسس والثوابت الجزائرية فتأثر بالأفكار والمفاهيم، والتصورات، فتفاعلت هذه الأخيرة وأنتجت معارف حقيقية لا وهمية "مصانع البارود الأخضر، وتكوين جيش نظامي.

فالأمير حاكى الغرب كثيرا في الميدان العسكري، حيث كان يتمنى لو يملك مدفعا حربيا واحدا شبيها لمدافع المستعمر، لتكون ضرباته مفيدة وقوية؛ وهذا ما حققه فيما بعد في قوله :

"كل ضرباتنا غير مفيدة وآلاتنا ضعيفة... نحتاج إلى مدافع من عيار أقوى كتلك التي يمتلكها الفرنسيون"[(1)] ؛وفي قوله أيضا:" نتمنى أن يستفيد من خبرة الفرنسيين لخلق جيش نظامي عتيد" [(2)]؛ فالأمير يرى بمحاكاتهم، وتقليدهم، يتم بناء دولة قوية يعمها التقدم والرقي والازدهار، وهذا مدخل حقيقي له.

ويتجسد انفتاح "الأمير" أكثر فأكثر خاصة في علاقته بالآخر / "مونسينيور ديبوش" "وأوجين دوما" والكابتن بواسيني"؛ فهي علاقة تتسم بالتفاهم، والتعاون والتبادل؛ أي أنها تتخذ طابعا سلميا بعيد كل البعد عن العنف والحرب، فعم السلم والسلام، والأمان والإطمئنان حياتهم جميعا،أي أن "الأمير" انفتح كليا؛ حتى أصبح لا يرى الآخر عدوا له.

والمقطع الروائي الآتي الذي جاء على لسانه يؤكد هذا؛ حيث قال متحدثا مع "السي مصطفى":

"نحن سجناء وكل ما بنيناه عن فرنسا وأوربا كان جوهره غير صحيح كنا ننظر إلى أنفسنا أننا الوحيدون الذين ينظر الله إلى وجوههم يوم القيامة وأن الجنة حكرا لنا وأن الله ملك للمسلم وكلما تعلق الأمر بالآخرين أنزلنا عليهم السخط"([1]).

([1]):المصدر السابق، ص 259.

([2]): المصدر نفسه، ص263.

فالأنا كانت تتلقى، وتأخذ دروسا على يد الآخر "بواسيني" وهذا لمعرفة علومهم، والنهل والاستفادة منها، ولمعرفة أيضا أسباب قوتهم، وتقدمهم، وتطورهم، والمقطع الروائي الآتي يبين هذا، حيث قال "الأمير" محاورا "مونسينيور" الذي كان مرافقا له طيلة الخمس سنوات التي قضاها في المنفى:"وقد ساعدني بواسيني في الاطلاع على ثقافتكم وعلومكم وأصبحت قريبا منكم لقد كان أستاذي الفاضل وتحمل ثقل طالب مسن ومشى معه خطوة خطوة"(2).

وفي قوله محاورا "بواسيني": "وجودك... أعطاني رغبة كبيرة ليس فقط في الحياة ولكن كذلك في التعلم، كنت قليلا من الفلسفة اليونانية، كنت أعرف قليلا من الفلسفة اليونانية سقراط، أفلاطون، وخصوصا أرسطو... ولكن اكتشافي لديكارت قربني من هذه الأرض"(3).

([1]):المصدر السابق، ص 388.

(2):المصدر نفسه، ص556.

(3):المصدر نفسه، ص 557 .

كما صورت الرواية التعايش؛ الذي كان بين المسلمين واليهود، وغيرهم في "الجزائر" حيث يقول الراوي: "بالمدينة عشرة آلاف ساكن يتوزعون بين الموركيسيين المهجرين واليهود الكوروغلي" ([1]).

كما أن "الأمير عبد القادر" كانت تربطه علاقة قوية ومتينة "بابن دوران اليهودي" حيث كان يستشيره في كل كبيرة وصغيرة فيما يخص أمور الحرب، بل وكان همزة وصل بينه وبين الفرنسيين "فابن دوران" كان مخلصا "للأمير" ولم يخنه يوما، في قول الأمير عنه:

"ابن دوران معرفة قديمة بالنسبة لوالدي بينهما علاقة كبيرة فقد منحناه كل الصلاحيات كان حلقة وصل بيننا وبين الفرنسيين، لا. لم نر منه ما يؤذينا، أما كونه يهوديا فقد وجدنا الخير أحيانا في اليهود والمسيحيين أكثر مما وجدناه في إخواننا"(2).

"فالأمير" في هذا المقطع جسد الانفتاح على الآخر، بغض النظر عن دينه ولغته وثقافته، بل واستفاد من خبرتهم في مجال صنع البارود الأخضر، فتمكن من بناء مصنع كبير له.

وفي قول الراوي:

([1]):المصدر السابق، ص 120 .

(2):المصدر نفسه ، ص 207 .

"قبل أن ينتهي الأمير من كلامه كان الأغا.... قد وصل مع خيالته انزلق بسرعة نحو خيمة الأمير الذي كان في حوار مع خبيريه الإيطاليين في الأسلحة الثقيلة والمدفعية[1].

وفي قول الراوي:

" لأن عمليات تحسين البارود كانت قد بدأت بمساعدة الخبراء الإيطاليين والألمان الذين كانوا قد وضعوا أنفسهم في خدمة المصانع الأميرية"[2]

فالأمير متعامل مع الغربيين في المجال العسكري؛ لأنهم الأقوى في هذا المجال آنذاك فحاول أن يقلد مظاهر الحضارة الغربية بكل حذافيرها، لكنه لم يستطع بسبب الذهنية الجزائرية المتخلفة التي لا تزال تؤمن بالأساطير والخرافات.

فالانفتاح والاحتكاك بالآخر/الغربي يولد، أو ينتج التقدم والتطور، والرقي، فلو انغلق الأمير على ذاته وموروثه، وعلمه، وحضارته لأدى به هذا إلى الجمود والتحجر والموت والفناء؛ أي أنه يبقى قابع في نار التخلف والبدائية والجاهلية .

([1]): المصدر السابق، ص 207.

([2]):المصدر نفسه، ص 207.

إذن فالأمير انفتح لأجل هدف واحد؛ ألا وهو إلحاق الشعب والدولة الجزائرية بالأمم الأخرى التي بلغت ذروتها في التقدم والازدهار، ويبرز هذا في المقطع الروائي الآتي؛ حيث يقول:

"وقد دعونا الكثير من الأوروبيين للمجيء للاستقرار والعمل في بلدنا وسمحنا لهم حتى بالتملك، نريد أن نستفيد منهم ومن خبرتهم وأن نبني هذه البلاد على أسس صحيحة وقارة نطمح من هذه الحضارة أن توقظ هذا الشعب النائم على الكذب"[1]، ويقصد الأمير بعبارة "الشعب النائم" هنا أن الشعب الجزائري شعب لا يحرك ساكنا ولا يلهث وراء التقدم والرقي، فهم يظنون أنهم متحضرون ومتقدمون بما فيه الكفاية، شعب له ثقة عالية بالنفس وهذا ما أدى به الغرور، ومن ثمة إلى الانهزام والاستسلام.

لكن الانفتاح الكلي يؤدي على الانسلاخ عن الهوية، والإنفلات من المبادئ والأسس والقيم والثوابت وبالتالي الذوبان والانصهار في حضارة الآخر، وهذا ما جسدته الرواية من خلال المرتدين والخونة الذين اتبعوا فرنسا أمثال،" يوسف" و"سي إسماعيل" و"مصطفى" و"سلطان المغرب".

ب- الأمير/الأنا والانغلاق:

إن رواية "الأمير مسالك أبواب الحديد" للروائي "واسيني الأعرج"، استطاعت أن تجسد وتصور لنا انغلاق الأنا على الآخر، فدعت إلى غلق جميع المنافذ والأبواب أمامه، لأنه الشر

([1]): المصدر السابق، ص 263.

والضار والاحتلال، والاستبداد والقمع والظلم، حيث منع والد الأمير "محي الدين" التعامل مع الفرنسيين، واعتبر أي نوع من هذا هو خيانة للدين والعرض والوطن؛ فأقبل هذا الأخير على إعدام وشنق قاضي أرزيو وأستاذ الأمير "أحمد بن طاهر لأنه تعامل معهم حيث قال" محي الدين" :

"أحمد بن طاهر الذي باع دينه وعرضه ووطنه للكفار وتعامل مع النصرانيين الغزاة المشنقة الله أكبر الله أكبر" [1]

فمحي الدين قام بمحاكمة الخائن "أحمد بن طاهر"على الرغم من أنه ارتكب هذا الجرم تحت ضغط السلطات الفرنسية/ الآخر.

فقال قاضي "أرزيو" مدافعا عن نفسه:

"تحاكمونني على جرم ارتكبته تحت ضغط عسكري فرنسي، وكنت مكرها وأنا أكفر عن ذنبي بطلب الصفح"[2]، لكن "محي الدين" لم يقبل أعذاره وأسبابه وأعدمه، حيث جاء في المقطع الروائي الآتي ما يدل على هذا.

"لقد حذرناك وطلبناك ولكنك تماديت، أنت تعرف أننا منعنا التعامل مع الفرنسيين وحرمنا بيع المواشي والبغال والخيول والتبن والعلف لهم"[3].

([1]):المصدر السابق، ص 13.

([2]):المصدر نفسه، ص 14 .

([3]): المصدر نفسه، ص 15.

فالأنا أعلنت الانغلاق والقطيعة مع الآخر وهو قرار ناجم وناتج من تجربتها مع الاستعمار ؛أي أنه نتيجة للخوف والرعب والهزيمة، وأيضا للحفاظ على الدين والحضارة والثقافة والهوية ... لأنه في نظرها مصدر البلاء والخراب ويسعى دوما لسحقها ومحوها وهدمها.

"فالأمير عبد القادر" رفض الانفتاح على الآخر، وعاد إلى الموروث العربي ليستمد القوة منه وليقتدي به ويسير على منواله، حيث قرأ كتب "ابن خلدون" ورسالة "الإمام ابن أبي زيد القيرواني" في الفقه وكتاب الشفاء ومصنفات "البخاري" في قول الراوي:

"الكتب التي كان يفتتح بها الأمير جلساته العلمية في أمبواز أمام ذويه ومرافقيه الصغرى في علم الكلام للسنوسي ورسالة الإمام ابن أبي زيد القيرواني في الفقه ومصنفات البخاري وكتاب الشفاء للإمام عياض"[(1)].

وهذا المقطع يدل على أن "الأمير" ينطلق من ذاته ليؤكد استقلالية الفكر العربي والهوية القومية والوحدة التكاملية؛ "فالأمير" رفض التسول الثقافي، والمعرفي والتبعية العمياء للغرب فراح ينهل ويستفيد من التراث الذي تركه القدماء، أي أنه انغلق ورفض الاستهلاك والاستيراد من الغرب، لأنه يرى بأن الذات العربية لها موروث ثقافي حضاري علمي زاخر لا بد من العودة إليه، ودليل هذا في الرواية هو رفض "الأمير" مصاحبة رئيس فرنسا "لويس نابليون" إلى دار الأوبرا لأنه لا يريد الإطلاع على الثقافة الفرنسية في قول" بواسيني":

([1]):المصدر السابق، ص 596.

"هل يريد سيدي الأمير أن يرتاح أم يريد أن يحضر سهرة اليوم في دار الأوبرا؟ ربما سمح لك ذلك باكتشاف جزء من ثقافتنا

وجد الأمير المسلك مناسبا لتفادي حضور الدعوة بأدب والبقاء مدة أطول مع ضيفه مونسينيور"[1].كما أنه رفض في بادئ الأمر زيارة "باريس" والتجول في معالمها الكبرى حيث قال "بواسيني" متحدثا إلى الأمير :

"ربما يتم التفكير لقيادتك إلى باريس لاكتشاف حضارتنا وقوتنا كما فعل إبراهيم باشا خديوي مصر... لا إبراهيم باشا رأى باريس وغيرها من أمصار فرنسا متنزها له يمرح فيه كيف شاء، أما أنا فلا أرى فرنسا الآن إلا سجنا لي ولمن معي"[2].

إذن فالأمير / الأنا انغلق وتوقع على ذاته وموروثه؛ لا يسعى إلى الإطلاع على ثقافة الآخر/الفرنسي لأنه بالنسبة له، المستبد ، الظالم السجان، القامع، المحتل الغاشم.

ومن الشخصيات الروائية التي جسدت، وصورت لنا الانغلاق ورفض الآخر بشكل قاطع وبارز، المحارب والمناضل والمكافح "السي مصطفى" الذي تم نفيه رفقة "الأمير" إلى فرنسا ويتجسد هذا عندما تملكه غضب شديد من "الأمير عبد القادر"، الذي زار الرئيس "نابليون" وتجول رفقته في باريس حيث قال الأمير وعلامات الغضب بادية على وجهه :"أليس من حقنا أن نرفض

([1]): المصدر السابق، ص 575.

([2]):المصدر نفسه، ص 528.

نحن كذلك مس أيدي من أحرقوا الناس أحياء في جبال الظاهرة وغيرها وقطعوا رأس سيدي مبارك وغيره"[1].

" فالسي مصطفى" انغلاقه هذا؛ هو نتيجة لانهزامه في معارك وحروب عديدة، فتملكه الخوف والرعب من الآخر، فهو لا يريد أي علاقة تربطه بهم لأنهم ارتكبوا مجازر كثيرة في حق الشعب الجزائري البريء الذي سلبت ونهبت منه أرضه.

إذن فالأنا انغلقت ورفضت الآخر لأنه يسعى إلى فرض هيمنته وسيطرته والاستيلاء الكلي والنهائي للجزائر، فدافعت القبائل باستماتة عن وطنها لكنها فشلت بسبب ضعف عتادها الحربي، حيث جاء على لسان الأمير:

"لقد شاء الله أن تنتهي هذه الحرب، يجب أن نقبل بهذا القدر، قاتلنا مدة 15 سنة لإنقاذ شعبنا من غطرسة الغزاة"[2].

فانغلاق الأنا على الآخر، وخوضها حروب عديدة لتحرير أرضها، يدل على وعيها وإدراكها للآخر المختلف عنها دينيا ولغويا وحضاريا وثقافيا وعقائديا يسعى إلى طمسها ومحوها؛ وبالتالي محو كل ثوابتها ومبادئها وثوابتها وأسسها من دين إسلامي، لغة عربية، وهوية وثقافة وحضارة عربية إسلامية؛ ويبدوا هذا بارزا في قول الأمير:

([1]): المصدر السابق، ص 591.

([2]):المصدر نفسه ، ص 461.

"الهدف كان واضحا إبادتنا نهائيا ودحرنا بآلة فتاكة"[1]، لأن الفرنسي لا يحبذ أن يرى نظام عربي قوي، فهدفه دائما هو تشتيت وتمزيق العرب، والمقطع الروائي الآتي الذي جاء على لسان الأمير يؤكد هذا: " الغرب لا يريدون حكما عربيا قويا وموحدا"[2].

لنستنتج أن الأمير انفتح وانخرط في مواضع، وانغلق ورفض التعامل مع الآخر الفرنسي في مواضع.

فالأمير أقدم على الفعل الأول (الانفتاح) ليواكب العصر آنذاك وليلتحق بالركب الحضاري، فأخذ خير أوربا، أي ثقافتها، وعلومها من طب، وفلسفة، وهندسة، فلك...

وأقدم على الفعل الثاني ليتصدى لشرها وطغيانها (فرنسا)، فهي المستعمر، الوحشي والمدمر، وخوفا منه أن يزعزع ثوابته وأسسه ومبادئه، ومنطلقاته(الأمير والشعب الجزائري).

([1]): المصدر السابق، ص 421.

([2]): المصدر نفسه، ص 314.

ثانيا: الأنا وصورة المثقف العربي.

– إن رواية "الأمير" استطاعت أن تجسد، وتصور صورة المثقف العربي من خلال شخصية "الأمير عبد القادر الجزائري"، حيث وظف على أنه رجل مناضل، متدين، مثقف شغوف بمطالعة الكتب، فهو جائع متعطش، متشوق دوما للعودة إليها، للاستفادة والنهل منها، لكن الظروف القاسية والصعبة حرمته ومنعته من الإطلاع عليها، والجلوس معها، والاستمتاع بعلومها ومعارفها،(الاحتلال الفرنسي الغاشم).

فالأمير كان يرى في الكتاب خير جليس، وأنيسا له، خاصة الكتب العربية القديمة ككتب "ابن خلدون "و "ابن عربي"و" ابن القيرواني"، و"السنوسي"....الخ.

والمقاطع الروائية الآتية التي جاءت على لسان الأمير تبين هذا:

" كم أتمنى أن ينتهي هذا البؤس وأعود إلى كتابي"[1].

وفي قول الراوي(جون موبي):

"الأمير كان يبكي على كتاب أكثر من بكائه على عزيز"[2]؛ لأن الكتاب بالنسبة له مفتاح العلم، الذي ينير الدروب والطرقات أمامه وأمام قبيلته وأنصاره الذين يعومون في الجهل، والخرافة، والعصبية القبلية.

([1]):المصدر السابق، ص 384.

([2]):المصدر نفسه ، ص 385.

حيث يقول الرواي:

" مد الأمير يده نحو مصنف المقدمة لابن خلدون"[1] .

فالأمير لا يخلد إلى النوم حتى يقرأ كتابا، ليشفي غليله، لأن هذا الفعل حكرا على الغرب دون العرب، ولهذا السبب اتسعت الهوة بيننا، وبينهم ولا يمكن قياسها حتى بالأزمنة والقرون.

حيث يقول" الأمير" محاورا القس "مونسينيور":

" أنا كذالك أشتهي أن أذهب إلى المكتبة للحصول على كتاب لقراءته مثلما تفعلون"[2].

"الأمير" حتى وهو في المنفى، لا يتوقف عن القراءة، حيث اطلع على كتاب" الإشارات الإلهية" وفي كل مرة يتوقف عند فصل "الغريب"، لأن الأمير يرى نفسه غريبا في زمن ملأه وغمره التقدم والتطور، فالسيف والرمح لم ينفعانه في زمن كهذا (انهزامه وانكساره أمام الآخر الذي يملك عتادا متطورا جدا).

"فالأمير" شديد الاعتناء بالكتب، حيث كان يضع الأخير كتاب "الإشارات الإلهية" في غلاف جلدي، خوفا من تلفه أو ضياعه، فهو بمثابة الكنز الثمين الذي لا يفنى ولا يزول.

وعند سقوط الزمالة، أو دولة الأمير، حرق الآخر/ الفرنسي مكتبته التي تحتوي كتب عربية ثمينة "لابن خلدون" و"ابن عربي"وابن سينا"....

([1]): المصدر السابق، ص 175.

([2]): المصدر نفسه، ص 289.

فتملكه حزن وألم شديد حيث قال:" كان سيدي الأعظم ابن عربي .... أتمنى اليوم أن أجد وقتا كافيا لقراءته والإقامة في ملكوته اللغوي[1].

وقال أيضا: "حزين كما قلت لك.... لأن قيمة الكتب التي بعثرت، أو أحرقت لا تعد ولا تحصى"[2].

فالأمير كان يقدس العلم وأهل العلم، لهذا رفض بقوة العقلية، والذهنية الجزائرية المختلفة، والبدائية التي تعيش في الجهل والخرافة، فسعى إلى تغييرها ليدفع بالدولة إلى الإمام لكنه فشل، لأن الشعب آنذاك كان حيث نائم على الكذب والغرور الذي زرع فيهم من طرف أبائهم وأجدادهم حيث تشبثوا وتمسكوا بأفكارهم وطموحاتهم البسيطة والغريبة.

إذن فالأمير المثقف كان في صراع دائم، ومتواصل مع الجهلة الذين خانوه، وارتدوا في صراع مع المحيط الثقافي والفكري البدائي الذي تحكمه العصبية القبلية، "الأمير" كان لا يحارب العدو والغاشم بقدر ما كان يحارب الجهل المدسوس في أتباعه، لأنه سبب في تخلف وضعف الأنا ليصبح بين نار مهولة" نار الأخ الذي يتحين الآن الفرص لتدميره نهائيا"[3].

فالأمير شخصية مثقفة اطلعت حتى على علوم الآخر، حيث قرأ فلسفة "سقراط" و"أفلاطون" و"أرسطو"، وقرأ كتب تاريخية "لفرنسا"و"الغرب"....

([1]):المصدر السابق، ص 390.

([2]):المصدر نفسه، ص 290.

([3]):المصدر نفسه، ص288.

أما في علاقة المثقف مع الآخر/ الفرنسي يتراجع نوعا ما الخطاب الموضوعي الوطني ويطغى عليه الخطاب الذاتي اليائس، فيبرز معجم الثورة، والتمرد، والعصيان، والرفض والعصيان.... ليبرهن المثقف القطيعة مع الاستعمار الفرنسي حيث يقول الأمير عبد القادر:

" أقسم أن أدافع عن راية الإسلام وسأحارب كل من ينكر سلطاني الذي هو سلطان الله وكل من ساعد أعداءنا هو عدولنا وعدو لدينه"[1].

وفي قول" السي مصطفى":

" فرنسا تريد الحرب فليكن نحن لها، وهذه المرة سنحرر.... الشريط الساحلي بأكمله".[2].

فالمثقف المتحضر/ الأمير يسعى ويهدف إلى تغيير أوضاع مجتمعه أو محيطه، حتى يتمكن من التغلب على الآخر/ الفرنسي:

" كل شيء لازم يتغير، ابتدءا من اليوم كل شيء سيتغير لسنا في حاجة إلى هذا البذخ لكي نحارب الآخرين.... نحتاج إلى أسلحة حقيقية، إلى الماء إلى زراعة مغذية، نحتاج إلى تغيير سلوكاتنا اليومية"[3]. ليتحول الأمير بهذا، رمز لمحاربة الجهل والعدو معا، هو رمز للثقافة ولإعلاء كلمة الحق، فهو مدرك أن زمن الأجداد والآباء قد آل إلى الزوال؛ فلا بد من تغيير الذهنيات والسلوكيات اليومية التي لا تحقق نتيجة ولا انتصار.

([1]): المصدر السابق، ص 271.

([2]): المصدر نفسه، ص295.

([3]):المصدر نفسه، ص 17.

حيث قال الأمير:

" أتمنى أن يرزقنا الله وقتا لتغيير كل شيء، أعرف أن الزمن الذي عشناه مع أوليائنا وأجدادنا قد ولى نهائيا، وعلينا أن نقنع أنفسنا بأنه ذهب وإلى الأبد وحل محله زمن آخر "[1].

إذن فهدف الأمير كان واضحا، وهو إحداث تغيير جذري في مختلف المجالات والميادين بدء بالحياة اليومية، والمحيط الذي يعيش فيه، ثم التسيير الاقتصادي والعسكري، وبناء دولة متحضرة ومثقفة ومتوحدة.

كما استطاعت " رواية الأمير" أن تصور اختلاف ثقافة، الأنا عن ثقافة الآخر الفرنسي، فمعظم لقاءات المسلمين يقيمونها في المساجد، والزوايا، أما المسيحيين فيقيمونها في الكنائس، لأن الجزائريين مسلمون وثقافتهم إسلامية، والفرنسيون مسيحيون وثقافتهم مسيحية لائكية.

فثقافة الغربي إذن تختلف عن ثقافة العربي المسلم، وخير دليل على هذه التساؤل المرأة الغربية، أو الأوربية عن الثقافة الإسلامية العربية التي تسمح للرجل العربي بتعدد الزوجات بينما هذا لا نجده في ثقافتهم، فقالت محاورة الأمير:

" لماذا تتزوجون نساء كثيرات وليس واحدة مثلما نفعل نحن في ثقافتنا"[2].

([1]): المصدر السابق، ص22.

([2]):المصدر نفسه، ص500 .

فكانت إجابة الأمير، أن العادات والتقاليد والخصوصيات هي التي تسمح بتعدد الزوجات، وأن لكل دين ميزة المكان والقوم الذي نزل فيه.

كما أن تفادي، ورفض "الأمير" دعوة رئيس فرنسا "لويس نابليون" في الذهاب إلى دار الأوبرا "موسى" في بادئ الأمر نابعة من رفضه للثقافة الفرنسية الغربية، لأنها غير محترمة "فالأمير" كان يستحي من رؤية الأجساد، وهي شبه عارية تتراقص على خشبة الأوبرا، لأن هذا حرام ومحرم، وغير مرغوب فيه من طرف مثقف عربي متدين، وغير أخلاقي في ديننا الإسلام.

حيث يقول الراوي عن "الأمير عبد القادر" الذي صاحب "نابليون" فيما بعد إلى دار الأوبرا:

" عند ما بدأ العرض.... شعر بخجل كبير من رؤية الأجساد العارية وهي تتقاطع على منصة الأوبرا، ولكنه لم يعلق كثيرا وعند عودته إلى النزل استعد ما رآه لحظة لحظة يستغفر الله على المشاهد التي رآها" [1].

الأمير مثقف متدين، لهذا اعتبر رؤية مشاهد من هذا النوع من الكبائر الشنيعة، التي لا يغفر الله لعباده عليها، كما صورت لنا الرواية "المثقف الريفي" الذي كان سائد في تلك الفترة، والمتمثل في طلاب الزوايا وخدامين المقام، وهم مثقفين ريفيين لأنهم غير حاصلين على شهادات عليا أو جامعية، وهدفهم كان مثيل لهدف الأمير (بناء دولة متحضرة ومحاربة وإحداث التغيير في كافة مجالات و محاربة الاستعمار ونيل الاستقلال).

([1]): المصدر السابق، ص 577.

حيث قال الراوي:

" زادت الرياح قوة في هذا الصباح على غير عادتها، ومع ذلك استمر طلاب الزاوية وخدام المقام في تعليق الإعلام الملونة بالأبيض والأحمر على الرغم من طغيان اللون الأخضر[1]، وهذه الألوان التي علقها الطلاب، ليست إلا دليل على العلم الوطني الجزائري .

لنصل إلى أن المثقف العربي/ الأمير، كان يسعى دوما إلى الإطلاع على الكتب القديمة، أو كما تسمى أمهات الكتب، للاستفادة منها، فالمثقف كان هدفه واحدا ووحيد، تغيير العقلية الجزائرية التي تعيش في الجهل والخرافة، للقيام بالدولة التي هزمها الآخر/ المتفوق عليها، وبإحداث تغيير في الذهنية يتم تغيير الحياة جذريا.

([1]):المصدر السابق، ص 16.

خاتمة:

من خلال دراستي لإشكالية الأنا والآخر في رواية "كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد"، وبعد مسيرة طويلة، توصلت إلى جملة من النتائج لعل أبرزها، أو أهمها:

1-لقد استطاع واسيني الأعرج أن يتجاوز ثنائية الأنا والآخر، فنظر إلى الآخر نظرة إيجابية، قائمة على التسامح والحوار الحضاري والسلم، والتعايش فيما بينهما، والتي تدعو إلى الانفتاح على الآخر والاستفادة من خبرته، وعلومه، وحضارته، وهذا لبناء دولة قوية شبيهة لدولتهم.

2-استطاع الروائي أن يبين نقاط قوة الآخر، ونقاط ضعف الأنا، فاعتبر هذا الأخير "الضعف والتخلف" ليس إلا نتيجة للعقلية، والذهنية الجزائرية المتحجرة، والمتخلفة، والبدائية التي تحكمها العصبية القبلية.

3-استطاع "واسيني" أن يصور انفتاح الأنا على الآخر، وعدم تعصبها لدينها وعرقها وجنسها، لكن بين في الوقت نفسه في مقاطع روائية قليلة انغلاقها، فهو بالنسبة لها عدوا لدودا شيطانا لا يعرف الرحمة، سبب البلاء والخراب الذي حل بالأرض "احتلال الجزائر ونهب ثرواتها.

4- كما استطاع الروائي أن يمرر رسالة من خلال متنه هذا، وتتمثل في الأخلاق الغربية العالية، فشيد ونوه بأخلاق الآخر، في حين نقد الأخلاق العربية نقدا لاذعا.

5-كما استطاعت رواية "كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد" أن تجيب عن أسئلة عالقة في ذهن كل جزائري، من بينها سؤال الهوية، والانتماء، والرواية ككل تنطوي تحت هذين العنصرين.

6-كما استطاعت الرواية أن تكشف عن المضمر،وتجيب عن المسكوت عنه-حياة الأمير، وعلاقته مع الآخر/القس مونسينيور ديبوش طيلة أيام المنفى.

7-رواية الأمير، هي رواية الهوية والانتماء الجزائري، تبين كيفية بناء الدولة الجزائرية الحديثة من الأمير عبد القادر لأبناء هذا الجيل، أو العصر.

8-كما استطاع الروائي أن يبين نضال، ومقاومة الأنا للآخر لنيل الحرية والاستقلال التام.

9-استطاعت الرواية أن تبين الصراع الديني، والفكري، والحضاري الموجود منذ الأزل، أو القدم بين الأنا والآخر.

10-كما استطاعت رواية الأمير أن تجسد انبهار، واندهاش الأنا بالآخر، وما حققه، أو ما وصل إليه من تقدم وازدهار ورقي في المجال العلمي والعسكري.

11-إضافة إلى أنها صورة للاضطهاد والقمع والاستغلال الذي سلطه الآخر على الأنا، وهذا ما تعرض له الأمير عبد القادر في المنفى الفرنسي "قصر أمبواز، وقصر هنري الرابع".

قائمة المصادر والمراجع :

1-المصادر:

1-واسيني الأعرج:كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، دار النشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 2008 .

2-المراجع:

1-أحمد البيوري:في الرواية العربية التكون والاشتغال، شركة النشر والتوزيع المدارس،دار البيضاء، المغرب، ط1، 2000 .

2-أمين الزاوي:صورة المثقف في الرواية المغاربية، دار النشر الراجعي، الجزائر،2009 .

3-إسماعيل حاجم:الصراع الحضاري في الرواية الفرنكوفونية المغاربية، دار الأمل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007 .

4-جان نعوم طنوس:صورة الغرب في الأدب العربي المعاصر، دار المنهل اللبناني، مكتبة رأس النبع، بيروت، لبنان، ط1، 2009.

5-جيرار جونيت:خطاب الحكاية،تر:محمد معتصم،عبد الجليل الأزدي، منشورات الاختلاف، الجزائر،2000 .

6-سعد البازعي:إستقبال الآخر،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب،2004 .

7-سعد فهد الذويخ:صورة الآخر في الشعر العربي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2009.

8-عبد الملك مرتاض:في نظرية الرواية،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1997.

9-عبد الإله بلقزيز،العرب والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1 ، 2007.

10-عبد القادر أبو شريفة،حسين لافي قزق:مدخل إلى تحليل النص الأدبي، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، الأردن، ط3، 2000.

11-عبد الله إبراهيم:السردية العربية الحديثة، تفكيك الخطاب الإستعماري وإعادة النشأة، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، ط1، 2003 .

12-غادة الطويل:الثقافة العربية جذور وتحديات، ك .م، للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

13-صادق قسومة:الرواية مقوماتها نشأتها في الأدب العربي الحديث، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000.

14- صادق قسومة:نشأة الجنس الروائي في المشرق العربي، دار الجنوب للنشر الجامعي، تونس، 2000.

15-محمد العابد الجابري: الإسلام والغرب الأنا والآخر،سلسلة فكر ونقد الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الكتاب الأول، 2009.

16-محمد بوعزة:تحليل النص السردي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2012.

17-محمد صابر عبيد:جماليات التشكيل الروائي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2012 .

18-محمد مصطفى زيدان:معجم المصطلحات النفسية والتربوية، دار الشروق للنشر والطباعة، لبنان، ط2، 2002.

19-محمد راتب الحلاق:نحن والآخر، اتحاد كتاب العرب، دمشق، سوريا، 1997.

3 -المجلات والدوريات:

1-مجلة الأدب والعلوم الإنسانية، العدد الثامن،جوان ، 2007،جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر.

2-مجلة الآداب، العدد الثاني، أوت، 2014، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية.

3-الملتقى الدولي الخامس، السيمياء والنص الأدبي، 17 نوفمبر، 2008،قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر.

4-المواقع الالكترونية:

Http//puplct.a/watan.voic.com.

http//el ana el akhare.com.

hpp//www.aljarida.com.

hpp//www .moartada. com.

5-مذكرات التخرج والرسائل الجامعية:

1-السعيد زعباط:رواية كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد لواسيني الأعرج بين الحقيقة التاريخية والمتخيل التاريخي، المشرف:عبد السلام صحراوي، مذكرة ماجيستر، دفعة 2010، جامعة منتوري، قسنطينة،الجزائر .

2-العلمي مسعودي:الفضاء المتخيل والرواية"كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد"، دراسة بنيوية سيميائية، المشرف:العيد جلول، مذكرة ماجيستر، دفعة 2011، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر.

الفهرس: